التحدّيات
في عهد عليٍّ أبي السبطين رضي الله عنه

إعداد
عبد الحميد بن علي فقيهي

مقدم لـ
«مؤتمر السابقون الأولون ومكانتهم لدى المسلمين
(الثالث) الخلافة الراشدة
والقيم الفكرية والحضارية»

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين نبينا محمد المصطفى الأمين وعلى آله وصحبه الغر الميامين؛ وبعد

لقد كان استشهاد أمير المؤمنين عثمان ﷺ وهو كاف يده يقرأ في كتاب الله لم يشهر سيفا أو يقيم حربا، بل ينصح ويحذِّر ويذكِّر، صدمة قوية لأصحاب النبي ﷺ أذهلت عقولهم وصدعت قلوبهم وبلغ بهم الحزن والأسى كل مبلغ وأحسوا بتقصيرهم وندموا أشد الندم، ولم يكن منهم أو من بعضهم شيء يذكر، ولكن نفوسهم النقية الصافية وشدة ورعهم وتقواهم جعلهم يحمّلون أنفسهم ذنباً لم يرتكبوه، يقول ابن عباس: لو أنّ الناس لم يطلبوا بدم عثمان لرجموا بالحجارة من السماء. ويقول سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة وممن اعتزل يقول: لو انقضّ أحد لما صنعتم بابن عفان لكان حقيقيا أن ينقض[1]، أي يسقط مغشيّا عليه!

لذلك فقد اجتمع الصحابة في حبِّ عثمان ﷺ والحزن على ما أصابه، واختلفوا في كيفية الانتصار له وأخذ حقه ممن اعتدى عليه، فأمّا طلحة والزبير وأم المؤمنين ومعاوية وأهل الشام جاء موقفهم وتصرفهم نتيجة طبيعية لتلك المشاعر والعواطف التي اختلجت في نفوسهم، فامتزج استصدار الأحكام بالعواطف الجيّاشة.. فكانت هذه العواطف مؤثرة وموجهة لنظرتهم ومواقفهم وتصورهم والذي تبلور في أن كل من قدم المدينة أصبح من (قتلة عثمان).

(١) صحيح البخاري (الفتح ١٢/ ٣١٥) وسيأتي بالتفصيل.

أمّا علي ﷺ فقد اجتمع معهم في حب عثمان والحزن عليه ولكنه لم يجعل لهذه العاطفة الجيّاشة أثر على استصدار الأحكام والمواقف والتصور فأنزل الأحكام الشرعية ــ بكل مهنية ــ على هذه النوازل العظيمة وهو أهل لذلك فقد دعا له من لا يُرد دعاؤه فقال له ﷺ حين بعثه قاضياً: إنّ الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك.

وقال عنه عمر ﷺ: وأقضانا عليّ. فهذه المعاني والقيم ترسخت في أمشاج عليّ ولولا امتزاجها بأمشاجه ما كان أقضى الأمة، وكذلك لصوقه الطويل بالنبي ﷺ ونشأته في بيت النبوة بين محمد ﷺ وأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها منذ نعومة أظفاره إلى أن كان آخر من ودّع جسده الشريف ﷺ.

كذلك منصب الخلافة يجعله يوازن بين الأمور وينظر للمصالح والمفاسد ولا يُغْفِل جانباً أو طرفاً فهو مسئول عن جميع الأمة، فلا يتخذ قراراً يبني من جهة ويهدم من جهة أخرى.لذلك اتخذ موقفا واستصدر حكماً توافرت فيه كل هذه الاعتبارات التي توجّه الحكم إلى الصواب.

ولا يعني الثناء على علي ﷺ بما هو أهله غمض إخوته بل هم مثله في ذلك من السبق إلى الإسلام والهجرة، فالزبير وطلحة شهداء ولا يكون الرجل شهيدا إلا إذا قُتِل في طاعة وأم المؤمنين زوج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة وأفقه النساء على الإطلاق، ومعاوية ﷺ شهد له ابن عباس بالفقه.

وبعض الصحابة وعلى رأسهم خزيمة بن ثابت البدري كان يراقب عمارا ﷺ في صفين لأجل حديث (تقتل عمارا...) ليرى من يقتله، مما يدل على قوة حجج من خالف عليّاً، مما يحتاج إلى **نصّ** لتبيينه وتحييد وإزالة تأثير العواطف على القرارات والأحكام التي تؤثر على الأمة.

وهذا البحث الذي يبحث في هذه الجوانب التي هي تحديات كبيرة واجهت الصحابة رضوان الله عليهم عموما وعليّاً على وجه الخصوص بصفته أمير المؤمنين، وكيف واجهها وتعامل معها، ووضع أسسا وقواعد في التعامل مع المخالفين، ولو لم يكن لعلي ﷺ في خلافته إلا إبراز وتوضيح وتطبيق معاملة أهل البغي دعوة ومناصحة ثم مقاتلة وتوضيح طبيعة الحرب وأنها مقاتلة تنتهي بالتسليم وليس قتلا يراد منه الانتصار واستئصال المخالف لكان كافياً.

وقد حرصت في هذا البحث على اجتناب التناقض في التقريرات، فكانت الروايات الصحيحة المتفقة مع هذه المواقف هي مادة البحث، وأغلب هذه الروايات مجموعة في كتابي خلافة عليٍّ ﷺ التي يغلب عليها السرد التاريخي بخلاف هذا البحث الذي يركز على المواقف والرؤى وإبرازها وتحليلها لإظهار حجم التحديات الكبيرة التي واجهت أمير المؤمنين وإخوته وكيف تعاملوا معها.

هذا وأسأل الله عز وجل التوفيق والسداد.

ترجمة أبي السبطين علي بن أبي طالب ﷺ

نسبه:

علي بن أبي طالب ﷺ ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي- الهاشمي القرشي ابن عم محمد رسول الله ﷺ يلتقي معه في جده الأول عبد المطلب بن هاشم.

وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي-، أسلمتْ قديماً وهاجرت إلى المدينة وتوفيت بها وشهد دفنها النبي ﷺ[١].

ويكنى أبا الحسن، بأكبر أبنائه، وأبا تراب، كناه بذلك الرسول ﷺ وكان يحب أن يُدعى به[٢].

مولده:

ولد ﷺ على الأرجح قبل البعثة بعشر سنين[٣].

ومن أكبر نعم الله عز وجل عليه أنه نشأ وترعرع في بيت أفضل الخلق رسول الله ﷺ وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام قد أخذه من والده أبي طالب حين أصابت قرش مجاعة شديدة[٤].

---

(١) ابن هاشم: السيرة النبوية، (١/ ١٦١، ١٨٩) وأحمد بن حنبل: فضائل الصحابة (٢/ ٥٥٥). ومصعب الزبيري: نسب قريش (ص ٤٠).والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (١/ ١٣٣) وابن حزم: جمهرة أنساب العرب (ص ١٥) وابن قدامة المقدسي: التبيين في أنساب القرشيين (ص ١٤٧). وابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، (٢/ ٥٠١) (ترجمة علي رضي الله عنه).

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري (٧/ ١٧٠).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية (١/ ٢٦٢). والطبراني: المعجم الكبير (١/ ٥٣) رقم (١٦٥).

(٤) ابن إسحاق: سيرة ابن إسحاق (ص ١١٨)، بدون إسناد، والحاكم: المستدرك على الصحيحين (٣/ ٥٧٦) من طريق ابن إسحاق.

إسلامه:

عليٌّ ﷺ من السابقين إلى الإسلام، إذ تفيد الروايات الصحيحة بأنَّهُ أول الذكور إسلاماً.

فعن زيد بن أرقم قال: أول من أسلم مع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب[١].

وقال ابن عباس: عليٌّ أول من أسلم[٢].

مناقبه:

قال الإمام أحمد وغيره من أئمة الحديث: «ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل؛ ما جاء لعلي بن أبي طالب ﷺ».

«ولم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء في علي»[٣].

ومن أشهر وأصح فضائله، ما كان في فتح خيبر سنة سبع للهجرة حيث قال رسول ﷺ بعد عدة محاولات لفتحها:

«لأعطينّ الراية، أو ليأخذن بالراية غدا، رجل يحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه»[٤].

---

(١) الترمذي (تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي) (١/ ٢٣٨). وقال حسن صحيح. وابن أبي عاصم: الآحاد والمثاني (١/ ١٤٩) والنسائي: خصائص علي ﷺ (ص ٢٢). وقال المحقق: صحيح، رجاله رجال الصحيح.وله فضائل الصحابة (ص ٧٣).

(٢) عبد الرزاق: المصنف (٥/ ٣٢٥، ١١/ ٢٢٧)، ورجاله رجال الصحيح سوى عثمان الجزري. وزين الدين العراقي: التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، (ص ٣١) وقال: سنده صحيح.

(٣) المستدرك على الصحيحين (٣/ ١٠٧) وفتح الباري (٧/ ٧١).

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/ ٧٠) ومسلم: الصحيح (٤/ ١٨٧٢-١٨٧٣).

وفي الحديث الصحيح أن عليّاً رضي الله عنه قال:

«والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي ﷺ أن لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق»[1].

وقال رسول الله ﷺ حين خلّفَهُ في غزوة تبوك: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي»[2].

(١) مسلم: الصحيح (١/ ٨٦). وابن ماجه: السنن (١/ ٤٢) وسيأتي تفسير الحديث مفصلا في آخر البحث

(٢) صحيح البخاري: (فتح الباري ٧/ ٧١، ٨/ ١١٢).

البيعة

كانت حادثة مقتل عثمان ﷺ صدمة قوية نزلت على المسلمين قَصَمَتْ ظهورهم وأّذهلت عقولهم، ولم يكن يخطر في خَلَدِ الصحابة أنَّ الثائرين ستصل بهم الجرأة والسفاهة أن يَتَقَحَّموا في دمِهِ ظلماً وعدواناً؛

يقول علي بن أبي طالب ﷺ لما سمع الخبر:

ولقد طاش عقلي وأنكرت نفسي[1].

وأم المؤمنين عائشة كانت إذا ذكرته تبكي بمرارة حتى يبتل خمارها من كثرة الدموع[2].

وكثير من الصحابة عبروا عن صدمتهم الشديدة من هول الجريمة المُروِّعة.

ويُفهم من الروايات الصحيحة، وكذلك رواية سيف المماثلة؛ أن المدينةَ بقيتْ أياما بلا خليفة وأن الصحابة لزموا بيوتهم وأنه في خلال هذه الأيام كان الثوار هم الذين يبحثون عن خليفة، وكانوا لا يعْدون عن ثلاثة؛ علي وطلحة والزبير؛ ثم بعثوا إلى سعد فرفض بشدة.

فلما فشلت تلك المحاولات رأوا أن يبحثوا عن رجل آخر غير أصحاب الشورى ولم يجدوا أمامهم سوى ابن عمر؛ إذ تفيد إحدى الروايات الصحيحة أنهم هددوه بالقتل إن لم يقبل ! ولكن هيهات أن يسمع لهم.

---

(١) الحاكم: المستدرك (٣/ ١٠٥، ٩٥) بسند حسن.

(٢) مسائل أحمد رواية ابن هانئ (٢/ ١٧١ رقم ١٩٤٢) بسند صحيح

حينها أدرك هؤلاء الثائرون الحقيقة التي يجهلونها، وهي أن أمر الخلافة بيد أهل المدينة من المهاجرين والأنصار من أهل بدر وأحد والرضوان وأن الناس تبع لهم في ذلك.

فتذكر رواية سيف أن الثوار جمعوا أهل المدينة وقالوا لهم: أنتم أهل الشورى، وأنت تعقدون الإمامة، وأمركم عابر إلى الأمة، فانظروا رجلا تُنَصِّبُونَه ونحن لكم تبع. فقال الجمهور: علي بن أبي طالب، نحن به راضون[١].

وفي رواية صحيحة جاء الناس إلى علي بن أبي طالب للبيعة فقال لهم:

والله إني لأستحي أن أُبايعُ قوماً قتلوا رجلا قال فيه رسول الله ﷺ: «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة» وإني لأستحي من الله أن أُبَايَعَ وعثمان قتيلٌ على الأرض لم يدفن بعد؛ فانصرفوا، فلما دفن ﷺ أتوه مرة أخرى وسألوه البيعة، وقالوا له: لا بد للناس من خليفة، ولا نعلم أحداً أحق بها منك، فقال لهم علي: لا تريدون فإني لكم وزير خير مني لكم أمير، فقالوا: والله ما نعلم أحدا أحق بها منك.

يقول علي ﷺ:

اللهم إني مشفق مما أقدم عليه، وقال لهم: فإذا أبيتم عَلَيَّ، فإن بيعتي لا تكون سرا، ولكن أخرج إلى المسجد فمن شاء أن يبايعني بايعني، فخرج إلى المسجد وبايعه الناس[٢].

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٤٣٤) من طريق سيف.

(٢) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة (٢/ ٥٧٣) بإسناد حسن.والحاكم: المستدرك (٣/ ٩٥) بإسناد حسن. وأبو نعيم: الإمامة (ص٣٢٩)

ودَورُ هؤلاء الثُّوار في المشاركة الواضحة في عَمَلية البيعة، لا يُعدّ طعنا فيها فقد كان علي ﷺ المرشح للخلافة في عهد عثمان ﷺ فلما استشهد الأخير، لم يبق على ظهر الأرض صحابيٌّ أفضل منه.

وقد رُشّح للخلافة في حصار عثمان تأكيدا من قِبَلِ طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم، وذلك عندما جاء الأحنف بن قيس حاجا، فلما رأى شدة الحصار، قال لهؤلاء: ما أرى الرجل إلا مقتولا، فبمن تنصحاني أن أبايع بعده، وترضونه لي، فقالوا: علي بن أبي طالب(١).

بايع الناس عليّا ﷺ بالخلافة، كما بايع طلحة والزبير رضي الله عنهما، وقد وردت روايات على أنهما بايعا مُكْرَهَين؛ وهذه العبارة التي وردت في بعض الروايات تُحمل ــ على فرض صحتها ــ تذمرهم من مشاركة من سمَّوهم (قتلة عثمان) في البيعة بشكل بارز!

وليسا أنهما كَارِهيْن أن يُعْطِيا علياً ﷺ وعنهم البيعةَ.

لأن عليًّا في زمنه كأبي بكر ﷺ في زمنه (تُقَطَّع إليهما الأعناق)(٢) أي تشرئِبُ وتتطاول إليهما الأعناق لعلو منزلتيْهما ولا يساويهما أحدٌ في الفضل في وقْتَيْهِما.

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنف (١١/ ١١٨)، ورجاله رجال الصحيح. وصححه ابن حجر في فتح الباري(١٣/ ٣٤، ٥٧).

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ١٢/ ١٤٤-١٤٥).ومسند أحمد (١/ ٣٢٣-٣٢٧) تحقيق أحمد شاكر.

وأما ما حدث بعد من خلاف، ومسيرهما إلى البصرة، ودعوة الناس إلى الانضمام إلى رأيهما، لا علاقة له البتة بالبيعة، بل كانا يريان أن عليّاً أولى بالخلافة وأحق بها.

ولو كانت الأمور طبيعية وحدثت شورى في بقية أعضاء الشورى أو موسعة في أهل المدينةِ المهاجرين والأنصار كما حدث في تولية عثمان ﷺ لَما تقدم أحدٌ عليه.

وهكذا تمت البيعة لعلي ﷺ وأصبح خليفة المسلمين إذ بايعه أهل المدينة، أهل الحل والعقد من أهل بدر، وأصحاب الشورى والمهاجرين والأنصار؛ والناس تبع لهم في ذلك.

وفي حديث سفينة قال: قال رسول الله ﷺ «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك، أو ملكه من يشاء»[1].

وقد قيل لأحمد بن حنبل؛ أتحتج بحديث سفينة؟

قال: وما يدفعه؟!

قيل له: خلافة عليٍّ على غير مشورةٍ ولا أمرٍ!

(١) سنن أبي داود: (٥/ ٣٦-٣٧).وسنن الترمذي: (تحفة الأحوذي) (٦/ ٤٧٦-٤٧٨).
وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٧٤٢-٧٤٩) وله رد قوي على من ضعفه من الأقدمين والمعاصرين، وكذلك في تحقيق كتاب السنة لابن أبي عاصم (٢/ ٥٦٢) وقال: حديث صحيح، وإسناده حسن.

قال: لا تكلم في هذا علي يحج بالناس، ويقيم الحدود، ويقسم الفيء، لا يكون خليفة !؟ وأصحاب رسول الله ﷺ ينادونه يا أمير المؤمنين!![1].

وسأله رجل قال: خلافة علي ثابتة؟! فقال: سبحان الله ! يقيم عليٌّ رحمه الله الحدود ويقطع ويأخذ الصدقة ويقسمها بلا حق وجب له!!

أعوذ بالله من هذه المقالة، نعم خليفة رضيه أصحاب رسول الله ﷺ وصلوا خلفه وغزوا معه وجاهدوا وحجوا، وكانوا يسمونه أمير المؤمنين راضيين بذلك غير منكرين، فنحن تبع لهم ونحن نرجو من الله الثواب باتباعنا لهم إن شاء الله مع ما أمرنا به الله والرسول ﷺ[2].

وقال ابن تيمية: المنصوص عن أحمد تبديع من توقف في خلافة عليٍّ. وقال: هو أضل من حمار أهله، وأمر بهجرانه ونهى عن مناكحته[3].

إلا أن التصدي للخلافة عقِب مقتل عثمان ﷺ ليس بالأمر السهل فهناك مسؤوليات جليلة وخطيرة، ستواجه الخليفة الجديد، سواء كان الخليفة علي ﷺ أو غيره أهمها (القود من قتلة عثمان) يدل على ذلك أن خلافة عليّ ﷺ سمتها البارزة القتال بسبب دم عثمان ﷺ وقد أدرك ابن عمر هذا، عندما عرض عليه الثوار الخلافة حتى هددوه بالقتل!! فرفض وامتنع وعلل امتناعه بقوله: «لا والله لا يهراق في سببي محجمة من دم ما كان فيّ روح»[4]، ولعلمه بوجود من هو أحق

(١) مسائل الإمام أحمد بن حنبل، رواية ابن هاني (٢/ ١٧٢) والخلال (٤١٢، ٤١٣).
(٢) الخلال: كتاب السنة (٤١٤).
(٣) ابن تيمية: الفتاوى (٤/ ٤٣٨). والعقيدة الواسطية (١٦٢) بشرح محمد هراس.
(٤) أحمد: فضائل الصحابة (٢/ ٩٥) بسند صحيح). وابن سعد: الطبقات (٤/ ١٥١) بسند صحيح أيضا. وأبو نعيم: حلية الأولياء (١/ ٢٩٣).

منه بالخلافة أيضا، وأدرك هذا أقرباء علي ﷺ، فنصحه ابنه الحسن بالخروج من المدينة أثناء الفتنة[١]، وأشفق عليه ابن عباس من تولي الأمر وقال له:

إن الناس سيلزمونك دم عثمان[٢].

مواقف الولايات من بيعته ﷺ:

إن الاستعراض التاريخي لموقف الولايات من البيعة، يكشف أن عددا غير قليل في أكثر الولايات توقف عن البيعة واشترط القصاص لعثمان ﷺ، وهذا ما توقعه وصرح به كلا من الحسن وابن عباس لعلي رضي الله عنهم قبل البيعة حين قال ابن عباس: إن الناس سيلزموك دم عثمان.

بل إنَّ ولايتيْن كالشام ومكة تكاد تجمع على التوقف عن البيعة، وقد قَارَبَ ابن حزم عندما قال: إن من امتنع أوتوقف عن بيعة علي أَزْيد من مائة ألف مسلم بالشام والعراق ومصر والحجاز[٣].

وهذا يجعلنا نلح في التساؤل، ما السبب في طرح هذا الشرط؟ ولماذا لم يبايعوا ثم يطالبوا الخليفة بذلك؟

وقبل الإجابة على هذا التساؤل الجوهري، يجب أن نؤكد أنّ بيعة علي ﷺ منعقدة شرعا ولا يؤثر في شرعيتها توقف من توقف واشتراط من اشترط - كما تقدم ـ ورأينا في كلام الإمام أحمد -.

---

(١) ابن أبي شيبة المصنف (١٥/ ٩٩-١٠٠) بإسناد صحيح.

(٢) عبد الرزاق: المصنف (١١/ ٤٤٨) بسند صحيح رجاله رجال الصحيح. والذهبي: تاريخ الإسلام (٦١/ هـ-٨٠هـ) (ص ٥٩).

(٣) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٦٧).

أعود فأقول: إنَّ من توقف واشترط قد استعرض في ذهنه الأيام الأخيرة من خلافة عثمان ﷺ وحصاره ثم أعقبَ الحصارُ تلك الجريمةُ المفجعةُ، ثم مبايعة علي ﷺ بالخلافة بعد مرور أيام على الناس بدون خليفة، ثم ما صحَّ من رواياتٍ في البيعة وأنها انعقدت بدون استخلاف من الخليفة السابق أو شورى بين بقية النفر الذين تجب الخلافة في أحدهم.

ثم لما كان من دور بارز لأهل الأمصار الذين شاركوا في حصار عثمان ﷺ في أمر البيعة، وتَعَنُّتهم على طلحة والزبير وإحاطة هؤلاء القوم بعلي ﷺ.

فكانت هذه الصورة التي روتْ بعضاً منها الروايات الصحيحة والضعيفة انتقلت إلى تلك الولايات والأقاليم، فكأنّ الناس رأوا أن الوضع كما هو لم يتغير؛ بل إن بعضهم قد اتهم الخليفة الجديد بتورطه أو لِينِهِ في أمر عثمان بشكل أو بآخر!.

فلذلك اشترطوا القَودَ من قتلة عثمان ﷺ.

ويشهد لهذا بعض الروايات، كرواية ابن سيرين يقول: (لم يكن عليّا يُتهم في عثمان حتى بويع) وماورد عن معاوية ﷺ عندما طُلِبَ للبيعة (بأن يقتل قتلة عثمان أو يبعدهم عن كنفه).

وما سبق من روايات صحيحة أن ابن عباس والحسن تخوفا على علي ﷺ وأشفقا عليه من قبول البيعة لأن الناس سيلزمونه دم عثمان ﷺ.

ويؤيد ما ذكرت من أنَّ البعضَ لم يُعجبهُ موقف عليﷺ من هذا الأمر بل ساورتهُ الشكوك حوله؛ ما ورد عن عليﷺ نفسه بسند صحيح قوله: (والله لوددت أن بني أمية رضوا لَنَفَلْناهم خمسين رجلا من بني هاشم يَحْلِفون ما قتلنا عثمان ولا نعلم له قاتلا) (١). وهذه هي القسامة المعروفة في الجنايات.

وهذا يتطلب منا أن نتعرف ونتلمّس موقف عليّ ﷺ ممن سمّوا (قتلة عثمان).

موقف عليٍّ ﷺ مِنْ مَنْ سُمُّوا «قتلة عثمان ﷺ»:

كان السبب الرئيس في امتناع مائة ألف من المسلمين حسب استقراء ابن حزم عن مبايعة علي ﷺ بالخلافة، هو تداعيات مقتل عثمان ﷺ وذلك لأن الخليفة الجديد لم يتخذ من الإجراءات مايظهر لهم أنه سيقوم بمعاقبة الذين اعتدوا على حرمة الخلافة وقتلوا إمام المسلمين، كما هو منتظر أن يفعله في ظنهم واعتقادهم.

وعندما مرّ وقتٌ على مقتل عثمان ﷺدون أن يحرك أمير المؤمنين هذه القضية، انتفض الناس عليه، فأعلن معاوية امتناعه عن البيعة، وخرج طلحة والزبير إلى مكة؛ بل إن البعض وصل به الحال ان اتهمه في مقتل عثمان رضي الله عنهما!!.

(١) سعيد بن منصور: السنن (٢/ ٣٢٥-٣٢٦) بسند صحيح.والخطابي: غريب الحديث (٢/ ١٤٩) من طريق سعيد منصور.

يرى بعض العلماء أن سبب صرف علي ﷺالنظر عن القود من قتلة عثمان؛ أنه لم يكن يعرف القتلة بأعيانهم، أو أنه لا يرى قتل الجماعة بالواحد، أو بأنه لم يدّع ولي الدم دعوى توجب الحكم له[١].

وقد ورد ابن تيمية هذه التفسيرات التي سبقت بقوله: ولا حاجة إلى هذه الأعذار؛ بل لم يكن عليّ مع تفرق الناس عليه متمكنا من قتل قتلة عثمان، إلا بفتنة تزيد الأمر شراً وبلاء، ودفع أفسد الفاسديْن بالتزام أدناها أولى من العكس.

ــ ويعلل موقف الخليفة ــ بقوله:

لأنهم كانوا عسكرا وكان لهم قبائل تغضب لهم، والمباشر منهم للقتل وإن كان قليلا فكان ردؤهم أهل الشوكة ولولا ذلك لم يتمكنوا.

ولما سار طلحة والزبير إلى البصرة ليقتلوا قتلة عثمان قام بسبب ذلك حرب قتل فيها خلق[٢].

ولعلَّ المراد بالمفسدتيْن التي يشير إليها ابن تيمية هنا؛ أن ترك القود مفسدة.

والمفسدة الثانية؛ أن القَودَ من الثوار لا يتم إلا عن طريق الحرب والقتال مع الثوار ومع قبائلهم التي ستحمي لهم وتتعصب، وسينتج عن هذه الحرب مقتلة وفتنة، وفي هذا مفسدة عظيمة تفوق في ضررها مفسدة ترك القصاص.

ولم يكن لعلي ﷺ اختيار آخر، فاختار أخف الضرريْن وهو ترك الاقتصاص.

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة (٤/ ٤٠٧).

(٢) منهاج السنة (٤/ ٤٠٧).

ولعل عليّاً ﷺ أيضا رأى أن هذا الجرم قد ارتكب في عهد عثمان ﷺ وأنَّ عثمان قد حكم في قضيتهِ بنفسه ، حيث أنه رفض عرض الصحابة أنفسهم في الدفاع عنه، وكان في كامل قوته والصحابة طوع إشارته ، إلا أنه أعرض عن هذه الأمور وفضّل كف يده ويد من عرَضَ عليه الدفاع عنه وسيخاصمهم يوم القيامة.

ومن الأمور القوية التي جعلته يصرف النظر عن القيام بالقصاص أنه يرى أن حد القتل لا يقع إلا على من باشر القتل وهو لا يعرفه.

فقد جاء عنه بسند صحيح أنه قال: والله لوددت أن بني أمية رضوا لنفلناهم خمسين رجلا من بني هاشم يحلفون؛ ما قتلنا عثمان ولا نعلم له قاتلا.

وفي هذا أيضا أن عشيرة عثمان ﷺوهم بنو أمية قد اتهموا عليّا ﷺ وهذا الدور منه –في نظرهم –هو حماية هؤلاء حيث إنهم كونوا جزءا من جيشه ﷺ؛ ودليل الاتهام قول علي ﷺ السابق؛ إذ سيخرج لو رَضِي بنو أمية خمسين رجلا من بيته يقسم كل واحد منهم يمينا على أنهم ما قتلوا عثمان ﷺ بل ولا يعلمون له قاتلا.

أما أصحاب الموقف الآخر؛ فهم يرون أن القود أو القصاص يتجاوز المباشر إلى المشارك في قتله أو المتمالِء عليه؛

وهذا كان رأي عمر ﷺفي قضية قتلٍ ، قال فيها لمن خالفه الرأي:

لو أن أهل صنعاء تمالؤا عليه لقتلتهم[1].

(١) الإمام مالك : الموطأ برواية الليثي (٢/ ٤٤٣) تحقيق بشار عواد، ط دار الغرب،بيروت

بل إن بعضهم وصل به الغلو في هذه النظرة، أنه يرى أن من خالف الخليفة في بعض آرائه وسمع من الثوار وأصغى لهم مشاركا في قتل عثمان ﷺ.

ومن الأمور التي جعلت عليّا ﷺ يتخذ هذا الموقف؛ كونه يرى أن هؤلاء القوم الذين شاركوا في حصار عثمان ﷺ ثم تطور الأمر إلى قتله على يد بعض أفرادهم؛ ليس غرض جميعهم قتل الخليفة، والذي يظهر عليهم أنَّ أكثرهم يريد الإصلاح –في نظره– ومنهم من أراد التضييق عليه ليستجيب لمطالب محددة ويرى أنّ هذا الأسلوب جائزا، وبعضهم ما ظن أن يصل الأمر إلى هذا الحد.

وقلة مختفية تحت ستار الخشية على دين الله وهم الذين تولوا كِبَرَ هذا الجرم.

إلا أن أغلب هؤلاء يشتركون في ذم عثمان ﷺ والحط من شأنه بسبب أنه خالف ما كان عليه النبي ﷺ وصاحبيْه رضي الله عنهما بزعمهم ويظنون أن أعماله المبنية على اجتهادٍ معتمدٍ على علم وفقه وإيمان، معاصيَ وانحرافات عن الكتاب والسنة.

فعلي ﷺ نظر إليهم بهذا التفصيل، وبالتالي عدم صحة وسلامة إنزال القود عليهم لاختلاف مستوياتهم وأهدافهم ومشاركتهم.

وابن قتيبة والباقلاني يضيفان رؤية هامة؛ وهي أن منْ سُمُوا (بقتلة عثمان) فرقة قوية بذاتها وقبائلها، وأن عليّا يريد أن يرفق بهم ويتألَّفهم.

لم يكتف علي ﷺ في تألف هذه الفرقة الكبيرة من المسلمين بل كانوا جزءا كبيرا في جيشه كما استعمل بعضهم.

وكان كل من حاربه أو اختار الاعتزال، يعلمون براءته بـراءة كليـة لا شـك فيها من دم عثمان ﷺ إلا أن أعماله مع الثوار من تأمير بعضهم واختلاطهم بجنده جعلتهم يظنون أنه قادر على إقامة الحد وأنه مؤثر لما جرى فقوي عندهم التأويـل في قتاله[1].

وتحديد القاتل بعينه لم يعلمه علي ﷺ فقد صح عنه أنه قال: «والله لوددت أن بني أمية رضوا لنفلناهم خمسين رجلا من بني هاشم يحلفون مـا قتلنـا عـثمان ولا نعلم له قاتلا».

(١) ابن قتيبة: تأويل مختلِف الحديث (ص٧٤) والباقلاني: التمهيد (ص٢٣٥).

معركة الجمل

بعد أن اتضح موقف علي ﷺالفقهي والسياسي ممن سموا قتلة عثمان تبين مدى الفرق الشاسع بين موقفه ومواقف المطالبين بالقصاص لعثمانﷺ من كبار الصحابة رضوان الله عليهم ومن تبعهم.

فهم يرون كما سبق بيانه أن كل من قدم المدينة وشارك في حصار عثمان والتضييق عليه وحرض الناس على ذلك قاتلا مجرما يجب معاقبته وتَتَبُّعِهِ. وإن لم يقوموا بهذا الواجب فقد ارتكبوا جريمة في حق الإمام الشهيد والمسلمين.

وأن هؤلآء جميعهم على هدف واحد وقد خدعوا الناس بأنهم يريدون إزالة ما وقع عليهم من ظلم بزعمهم وتستروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبالرغم من هذا البعد بين الموقفيْن، فإن أمير المؤمنين لم يسفِّه رأيهم ولم يـزْرَأْ به، بل كان يعتقد صدقهم ويقدر شعورهم وشفافية ضمائرهم النقية التي تفطّرت على عثمان ﷺوكان يثني عليهم في حياتهم وبعد مماتهم.

فسعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة وممن اعتزل يقول: لو انقضّ أحد لما صنعتم بابن عفان لكان حقيقيا أن ينقض[1]، أي يسقط مغشيّا عليه!.

وابن عباس وهو ممن تبنّى موقف أمير المؤمنين يقول أيضاً: لو أن الناس لم يطلبوا بدم عثمان لرجموا بالحجارة من السماء[2].

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ١٢/ ٣١٥).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٣/ ٨٠) والطبراني: المعجم الكبير (١/ ٤٠) وللأثر طرق أخرى ورد بعضها عند ابن سعد في الطبقات (٣/ ٨٠) وابن معين: التاريخ (٢/ ٢٩٥) ولتوثيقها انظر (فتنة مقتل عثمان ﷺ) (١٠٦، ١٠٧) قال عنها: حسن لغيره.

ومع ذلك وقف هذا الحبر مع الخليفة وقاتلهم.

ولم يُعرفْ عن أحدٍ من الصحابة أنه هوَّن من دم عثمان ﷺ أو هون من أمر المطالبين بدمه.

من هذه المنطلقات قرر بعض كبار الصحابة كطلحة والزبير وأم المؤمنين رضوان الله عليهم أن يقوموا بأنفسهم بِتَتَبُّعِ من سموهم (قتلة عثمان)، فقرروا بعد اجتماعهم في مكة أن يسيروا إلى البصرة؛ لأن كثيرا من أهلها ميولهم كانت مع كل من يطلب بدم عثمان ﷺ وقد وصفها بعض الموالين لعلي ﷺ بقوله: قطعة من أهل الشام نزلت بين أظهرنا[1].

كان اتخاذ هذا القرار وتنفيذه من وجهة نظر الخليفة يعني عصيانه، وإحداث الخلاف والفرقة بين المسلمين، لذلك فقد رأى عليّ ﷺ أنه لا بد من إدراكهم، وثَنْيِهم عن عملهم هذا.

أعمالهم في البصرة:

في البصرة دعوا الناس إلى الانضمام إليهم في الطلب بدم عثمان ﷺ وأرسلوا إلى أعيان وأشراف القبائل يستعينون بهم على قتلة عثمان.

يقول الأحنف بن قيس التميمي واصفا هول الموقف، وصعوبة الأمر ومفاجأته له وما سيحدثه من تداعيات:

(١) ابن سعد: الطبقات (٦/ ٣٣٣).

«...أتاني أفضع أمر أتاني قط، فقلت: إن خذلاني هؤلاء ومعهم أم المؤمنين وحواريّ رسول الله ﷺ لشديد وإن قتالي رجلا ابن عم رسول ﷺ، وقد أمروني ببيعته لشديد...»[١].

إلاّ أن عامة أهل البصرة قد تبعوهم[٢].

لم يتوان طلحة وأصحابه، في تنفيذ ما جاءوا لأجله، فاتجهوا إلى المربد، وخطبوا في الناس، وكانت خطبهم مؤثرة، كما تكلمت عائشة من وراء حجاب وأثرت في الناس ومن كلامها:

تركتموه كالثوب النقي من الدنس ثم قربتموه تذبحونه كما يذبح الكبش هلا كان هذا قبل هذا.

كان لحديثها أثر بالغ في النفوس إلا أن بعضهم ما يزال مترددا بسبب أن كتبا كانت تأتي إلى البصرة من عائشة تحرض على عثمان إذ قال لها مسروق: هذا عملك أنت كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج فقالت عائشة: لا والذي آمن به المؤمنون، وكفر به الكافرون، ما كتبتُ لهم بسوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا !، فعلم الناس أنه كتب على لسانها[٣].

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنف (١١/ ١١٨) والطبري (٤/ ٤٩٧-٤٩٩) وابن حجر: فتح الباري (١٣/ ٣٤) من طريق الطبري، وقال: سند صحيح.

(٢) عبد الرزاق: المصنف (٥/ ٤٥٦) بسند صحيح إلى الزهري مرسلا.

(٣) خليفة بن خياط: التاريخ (١٧٦) بسند صحيح.وابن سعد: (٣/ ٨٢) بسند صحيح. وابن شبَّة: تاريخ المدينة (٤/ ١٢٢٥).وابن كثير: البداية والنهاية (٧/ ٢٠٤) وقال: هذا إسناد صحيح إليها.

وهذا يدل على وجود منظمة خفية تعمل على تحقيق الفتنة بين المسلمين واستخدمت وسائل خبيثة، كان من أشدها نكاية التزوير على كبار الصحابة.

وقد أثر هذا المكر ليس في عامة الناس فحسب، فهذا مسروق وما أدراك من مسروق ينطلي عليه هذا التزوير، مع أنه تلميذ أم المؤمنين وعالم كبير وذو نظرة صائبة ورأي رشيد ، فاتبعهم كثير من الناس.

وتوجه الزبير وابنه إلى بيت المال ليرزقوا أصحابهم فاعترضهم حكيم بن جبلة أحد كبار الثوار في سبعمائة وحدثت الحرب بينهم والتي أطلق عليها بعض المؤرخين «يوم الجمل الأصغر» أو «وقعة الجمل الصغرى» فقتل حكيم وأخوه وابنه وسبعين من قومه ممن سُموا قتلة عثمان وأنصارهم(١).

خروج علي إلى العراق:

لما بلغ علي ﷺ سَيْر أهل الجمل إلى البصرة، خطب في أهل المدينة يستنفرهم ويحثهم على الخروج معه، فتثاقل كثير من أصحاب رسول الله ﷺ الذين عاصروا الفتنة والأحداث المؤلمة التي أدت إلى استشهاد عثمان ﷺ وكان عدد من هب معه سبعمائة رجل تقريبا(٢).

وقد اعتذر أسامة بن زيد إلى علي بقوله:

لو كُنتَ في شِدق الأسد لأحببت أن كون معك فيه، ولكن هذا أمر لم أره(٣).

---

(١) خليفة: التاريخ (١٨٣).والطبري: (٤/ ٤٧٠) من طريق سيف.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف (٢/ ٤٥).والطبري (٤/ ٤٥٥) عن سيف.

(٣) صحيح البخاري (الفتح ١٣/ ٦١).

كما اعتذر أهبان بن صيفي، وأخرج لعليٍّ سيفاً من خشب قائلا: إن خليلي وابن عمك ﷺ أمرني إذا كان قتال بين المسلمين أن أتخذ سيفاً من خشب[١].

وهذا الصحابي عنده أمر (نصّ) بأن لا يدخل في قتال إذا كان الطرفان مسلمان وحاول عبد الله بن سلام صاحب رسول الله ﷺ أن يرد عليّا عن الخروج فأتاه وقد استعد للمسير، وأظهر له خوفه عليه ونهاه أن يقدم على العراق قائلا: أخشى أن يصيبك ذباب السيف.

كما أخبره بأنه لو ترك منبر رسول الله ﷺ فلن يراه أبدا.

فقال علي: وأيم الله لقد أخبرني به رسول الله ﷺ.

ولكن مَنْ مع عليّ رضي الله عنه ممن (سُمُوا قتلة عثمان) قالوا لعليّ: دعنا فلنقتله!!.

فقد أصبح قتل المسلمين بل سادة الصحابة ممن يرونه يخالفهم ، أمرا هينا لا يرون به بأسا، وقولهم وتهجمهم هذا يدل على الجهل وعدم إنزال الصحابة الكرام منازلهم التي أمر بها رسول الله ﷺ. وهذا التصرف يجعل عليا يبذل قُصارى جهده في تبصيرهم فحديث رسول الله ﷺ له: فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم[٢].

جعله عليّاً نصب عينيه في إرشاد وتعليم هذه المجموعة الكبيرة من رعيته فنهاهم عليّ رضي الله عنه قائلا: إن عبد الله بن سلام منَّا رجلٌ صالح.

---

(١)أحمد: المسند (٥/ ٦٩) و(٦/ ٣٩٣).والطبراني: المعجم الكبير (١/ ٢٧١) والإسناد حسن.

(٢) النسائي: خصائص علي (٩٣) بسند صحيح رجاله رجال مسلم.

وفي الربذة قام ابنه الحسن ﷺ وهو باك لا يخفي حزنه وتأثره على ما أصاب المسلمين من تفرق واختلاف، وطلب منه ما طلبه منه قبل ذلك عبد الله بن سلام ﷺ أن لا يأتي العراق.

ولكن عليّا ﷺ رفض ذلك ورأى أنه لا بد من مواجهة الأمور والقضاء على الفتنة في مهدها[١].

ويرى أن طاعته واجبة، ومسير طلحة والزبير رضي الله عنهما شق للطاعة ولا بد من إعادتهما إليها ولو أدّى ذلك إلى القتال، إلا أنه سيكون الحل الأخير وقال: إنهما لو خرجا على أبي بكر وعمر لقاتلاهما[٢].

كان هذا هو الموقف الذي اتخذه علي ﷺ وهو موقف حازم وواضح.

تحرك علي إلى ذي قار، ومنه بعث للكوفة بعمار بن ياسر والحسن بن عليّ[٣].

اجتمع أبو موسى الأشعري بأبي مسعود الأنصاري وعمار بن ياسر – رضوان الله عليهم- والأخيريْنِ بدريْن ولام أبو مسعود وأبو موسى عمّاراً في تسرعه في هذا الأمر، فقال لهما:

ولكن أنتما ما رأيت شيئا أعيبكما به منذ أسلمتما تباطؤكما في هذا الأمر.

وكساهما أبو مسعود الأنصاري حللا وذهبوا إلى الجمعة وهو متوادّين رغم اختلاف المواقف.

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنف (١٥/ ٩٩-١٠٠) بسند حسن. والبخاري: التاريخ الكبير (١/ ٦٧).

(٢) ابن حجر: فتح الباري (١٣/ ٥٥).

(٣) صحيح البخاري فتح الباري (١٣/ ٥٣) والبخاري: التاريخ الصغير (١/ ١٠٩).

وقد قام عمار بمهمته خير قيام فخطب الناس في جامع الكوفة واستنفرهم ومن خطبته قوله: إن عائشة قد سارت إلى البصرة، والله إنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي[1]؟.

والضمير في (إياه) يعود إلى الله سبحانه وتعالى، ومراد عمار بذلك أن الصواب في هذه القضية مع عليّ.

وأن عائشة مع ذلك لم تخرج بذلك عن الإسلام وعن كونها زوجة رسول الله ﷺ في الجنة، فكان ذلك يعد إنصاف من عمار وشدة ورعه وتحريه قول الحق ولا تستخفَنَّه الخصومة إلى أن ينتقص خصمه فإنه شهد لعائشة بالفضل التام مع بينهما من الحرب[2].

وهنا يتبيّن البون الشاسع بين التربية المحمدية وبين من أرادوا بالأمس قتل ابن سلاّم رضي الله عنه!

محاولات الصلح:

كان الصلح هدف الجميع لذلك قامت جهود حثيثة للتوصل إليه.

وقد اشترك في محاولات الصلح عدد من الصحابة وكبار التابعين ممن اعتزلوا الأمر.

فليس معنى الاعتزال التخلي عن الإصلاح وتقريب المواقف.

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ١٣/ ٥٣-٥٤).

(٢) ابن حجر: فتح الباري (١٣/ ٥٨-٥٩).

فعمران بن حصين ﷺ أرسل في الناس يخذل الفريقين جميعا وبثّ أحاديث القتال في الفتنة وكذلك فعل أبو موسى الأشعري من قبل.

ثم أرسل عمران بن حصين إلى بني عدي –وهم جمع كبير انضموا للزبير– فجاء رسوله وقال لهم في مسجدهم: أرسلني إليكم عمران بن حصين صاحب رسول ﷺ ينصحكم ويحلف بالله الذي لا إله إلا هو لأن يكون عبدا حبشيا مجدّعاً يرعى أعنزاً حتى يدركه الموت أحب إليه من أن يرمي في أحد الفريقين بسهم أخطأ أو أصاب.

فامسكوا فدى لكم أبي وأمي.

فقال القوم: دعنا منك، فإنا والله لا ندع ثقل رسول الله ﷺ لشيء أبدا[1].

كذلك حاول حكيم بن أفلح أن يقنع أم المؤمنين باجتناب هذا الأمر والتخلي عنه كليّاً، فأبت عائشة رضي الله عنها[2].

أما كعب بن سور –أحد كبار التابعين– فقد بذل كل جهد وكلف نفسه فوق طاقته وقام بدور يعجز عنه كثير من الرجال.

فقد استمر في محاولة الصلح إلى أن وقع المحذور، وذهب ضحية جهوده؛ إذ قتل وهو بين الصفين يدعو هؤلاء ويدعو هؤلاء إلى تحكيم كتاب الله وكف السلاح[3].

---

(١) ابن سعد: الطبقات (٤/ ٢٨٧) بإسناد صحيح لغيره.

(٢) مسلم: الصحيح (١/ ٥١٢-٥١٤) (٧٤٦).

(٣) ابن سعد: الطبقات (٧/ ٩٢) من طريقين صحيحة الإسناد. والبخاري: التاريخ الصغير (١/ ١٠٠) بسند صحيح إلى عمر بن جاوان، وهو حديث الأحنف عن الجمل.

لم تقتصر محاولات الصلح على المحايدين فقط، بل كان لقادة الفريقين رضوان الله عليهم جهود جادة وحثيثة من أجل الوصول إلى اتفاق يحجز الفريقين عن الحرب.

فقد وردت رواية مشهورة تتحدث عن محاولة للإصلاح كادت أن تنجح لولا أن أفشلها وقضى عليها من اشترك في قتل عثمان، فأشعلوا الحرب فجأة في الغلس بدون علم قادة الفريقين[١].

وفي رواية حسنة الإسناد، تفِيد أنّ عدّة مقابلات ومراسلات جرتْ بين بقية العشرة المبشرين بالجنة؛ عليٌّ وطلحة والزبير، لعقد الصلح وحل القضية سلميّا.

واستمرت هذه اللقاءات ثلاثة أيام متواصلة قبل حدوث الكارثة، ولكن المحاولات هذه لم تنجح[٢].

كما أرسل علي ابن عباس إلى طلحة والزبير رضي الله عنهم، يسألهما هل أحدث ما يوجب السخط على خلافته كحيف في حكم أو استئثار بفيء وخلافه؟ فقالا: ولا في واحدة منها[٣].

وفي رواية شبيهة بها وردت عند أبي أحمد الحاكم: أن الزبير قال لابن عباس: نرفع لكم المصاحف غدا، فما أحلت حلّلنا، وما حرمت حرمنا، ولكن عبد الله

(١) الطبري: التاريخ (٤/ ٤٨٧، ٤٩٣) من طريق سيف.
(٢) ابن أبي شيبة: المصنف (١٥/ ٢٦٢) بسند حسن.
(٣) نفسه (١٥/ ٢٦٧). وأحمد: فضائل الصحابة (٢/ ٥٩٦) وسنداهما صحيحان.

بن الزبير استدعى ابن عباس فجاءه ابن عباس وهو كاره لكلامه؛ فقال ابن الزبير: بيننا دم خليفة، وعهد خليفة، وانفراد واحد واجتماع ثلاثة[1].

وبذلك لم تنجح جميع المحاولات الجادّة ولم يتوصلوا إلى اتفاق.

(١) أبو أحمد الحاكم الكبير: الأسامي والكنى، تحقيق يوسف بن محمد الدخيل (٤/ ١٤٤٣-١٤٤٤) ترجمة (أبو حبيبة). وابن عساكر: تاريخ دمشق، تحقيق شكري فيصل (ترجمة عبد الله بن الزبير) (٤٢٦)، وابن حجر: تعجيل المنفعة (٤٧٤) وفي إسناده عبد الله بن مصعب الزبيري (لينه ابن معين).

الجولة الأولى من معركة الجمل:

وصَّى الزبير في هذا اليوم ابنه عبد الله بقضاء دينه فقال: إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم وإني لا أراني إلا سأُقتَلَ مظلوماً، وإن أكبر همي دَيْني[1].

وأثناء ذلك جاء رجل إلى الزبير وعرض عليه أن يقتل عليا ! فأنكر عليه بشدة ثم قال له مستغربا: كيف ومعه الجنود؟فقال الرجل: أندس مع جيشه ثم أفتك به، فقال: لا؛ لا يفتك مؤمن أو أن الإيمان قَيْد الفتك[2].

فالزبير ﷺ ليس له غرض في قتل عليٍّ أو أي شخص آخر بريء من دم عثمان، فلم يخرج من مكة إلا للإصلاح، وهذا ليس من الإصلاح.

كما أن هذا الفعل قتلاً وليس مُقاتلة.

وما زال علي ﷺ يحاول تهدئة الوضع والإصلاح للحظة تلك.

إذ تفيد الروايات في رجوع الزبير في صبيحة هذا اليوم وذلك بعد لقاء بين علي والزبير، فذكَّر الزبير بأحاديث كان قد أُنْسِيَها وكلمه بألطف كلام وعظم له أشياء

وذكره بحديث سمعه من رسول الله ﷺ يقول له –أي للزبير– لتقاتله وأنت له ظالم.

فلما ذَكَرَ الزبير ذلك رجع وقال: والله لا أقاتلك.

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٦/ ٢٧٧) وابن أبي شيبة: المصنف (١٥/ ٢٧٩).

(٢) أحمد: المسند (٣/ ١٩) وقال محققه أحمد شاكر: إسناده صحيح. والعدني: الإيمان (ص ١٥٠).

وفي رواية أخرى تذكر أنه رجع يشُق الصفوف فعرض له ابنه عبد الله فقال: مالك؟ قال: لقد حلفت أن لا أقاتله فقال: وللقتال جئت؟! إنما جئت لتصلح بين الناس ويصلح الله هذا الأمر؛ فأعتق غلامك وقف حتى تصلح بين الناس، فأعتق غلامه، ووقف فلما اختلف الناس ذهب على فرسه[١].

انفلت الأمر واختلف الناس، حيث اختلاف الآراء والأهواء والمواقف فهناك من هو متمسك برأيه وهو القود ممن سَمَّوْهُم قتلة عثمان ﷺ لا يرضى بغيره وها هم أمام عينيه، وهناك قبيلة عبد القيس التي قتل منها قبل أيام عدد لايستهان به في وقعة الجمل الصغرى.

يقول ابن كثير: وإن صحَّ الحديث فلم يرجعه سواه[٢].

لم يبدأ علي ﷺ بالقتال بل الصحيح أنه كف يده وأمره جيشه بالكف حتى تكون الحجة له[٣] وقال: إن هذا يوم من فلج فيه، فلج يوم القيامة[٤].

وكان بدء القتال من جانب جيش الزبير ﷺ.

بدأ به السفهاء والصبيان والعبيد باللغط في الكلام والسب ورمي الحجارة والسهام، وكانوا ينادون يا ثارات عثمان فقال عليّ لجيشه: قد حلَّ لكم قتالهم ونشبت الحرب.

---

(١) الحاكم: المستدرك (٣/ ٣٦٦) والبيهقي: دلائل النبوة (٦/ ٤١٤) بسند حسن.

(٢)البداية والنهاية (٧/ ٢٤٢).

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف (١٥/ ٢٨٦) وصحح إسناده ابن حجر (فتح الباري ١٣/ ٥٧).

(٤) البيهقي: السنن الكبرى (٨/ ١٨٠-١٨١) وابن قدامة: المغني (٨/ ١٠٨) والألباني" إرواء الغليل (٨/ ١١٠) وقال: إسناده ضعيف لجهالة الراوي. اهـ. وهو شاهد عيان.

كانت هذه الجولة الأولى ولم يكن القتال شديداً، إلا أنها تمخضت عن انصراف الزبير في أولها مما كان له أثر في إضعاف معنويات المقاتلين إذ أن عددا كبيرا من المنظمين لجيشه انضموا بسبب وجود هؤلاء الصحابة الكبار وأم المؤمنين، كما أن طلحة ﷺ استشهد في بداية هذه الجولة[1].

فكان أول شهيد بعد انصراف حواري رسول الله قبل أن يَرمِي بسهمٍ أو يضرب بسيف.

الجولة الثانية:

وصل الخبر إلى أم المؤمنين بما حدث من القتال، وليته لم يصل ولكن قدّر الله ذلك؛ فخرجت على جملها وحولها بنوها المؤمنون ومعها كعب بن سَوْر الذي دفعت إليه مصحفا يدعو إلى وقف الحرب تقدمت أم المؤمنين وكلها أمل ورجاء أن يسمع الناس كلامها لمكانتها في قلوب الناس فتحجز بينهم وتطفئ هذه الحرب.

وكان هذا مقصدها وظنّها.

ولكن في هذه الجولة كانت فرقة من أتباع علي ﷺ متحمسين للقتال بشدة – ويبدو أنهم من حاصر الخليفة بل هُم- إذ أرسلوا سهما إلى كعب بن سور، فسقط صريعا، ولم يفلح أيضا موقف أم المؤمنين، فلم يلتفت إليها الناس واشتد القتال وحمي الوطيس.

---

(١) ابن سعد: الطبقات (٣/ ٢٢٣) بسندين صحيحين.وخليفة: التاريخ (١٨٥) من طرق مختلفة.

فلم يكن من شيء تفعله أم المؤمنين غير أن تدعو على قتلة عثمان وأخذ الجيش يؤمن معها، فسمعهم علي ﷺ فسأل ابنه ومن حوله ماذا يقولون؟ فقالوا: يدعون على قتلة عثمان ﷺ فقال علي: اللهم العن قتلة عثمان في السهل والجبل.

واشتد القتال حول الجمل، وسلّطتْ تلك الفرقة من جيش عليّ نبالهم على خدر عائشة حتى أصبح الهودج كأنه قنفذ مما رمي فيه من النبل.

وقد أصيبت أم المؤمنين بحيرة شديدة وحرج فهي لا تريد القتال ولكنه وقع رغما عنها، وأصبحت في وسط المعمعة، وصارت تنادي بالكف فلا مجيب، وكان كل من أخذ بخطام الجمل قُتِل.

فجاء محمد بن طلحة بن عبيدالله (السجَّاد) وأخذ بخطامه وقال لأمه أم المؤمنين: يا أماه ما تأمريني فقالت: كن كخيري ابني آدم أي كف يدك فأغمد سيفه بعد أن سله فقتل رحمه الله.

وهذه الرواية الصحيحة تدل بما لا يقبل الشك أن كبار الصحابة ومنهم أم المؤمنين لا يريدون القتال، فكيف تأمر ابن طلحة يُغْمِد سيفه وهو وسط المعمعة؟ !! ﷺ فكف يده وأغمد سيفه وظل يناشد كل من يريد قتله فيتحاشونه ! حتى قتله شريح بن أبي أوفى العبسي وقد قُتِل شريح مع الخوارج في النهروان.

أمر علي ﷺ محمد بن أبي بكر «أخو أم المؤمنين» وعبد الله بن بديل أن يعرقبا الجمل ويخرجا عائشة من هودجها إلى الساحة[١].

ثم ما إن أُخرجت أم المؤمنين من الميدان؛ حتى ولوا الأدبار منهزمين، وانطفأت الحرب ولو لم يتخذ هذا الإجراء لاستمر القتال إلى أن يُفْنَى جيش البصرة أصحاب الجمل، أو ينهزم جيش عليّ.

وعندما بدأت الهزيمة، نادى منادي عليّ في جيشه؛ أن لا يتبعوا مدبرا، ولا يجهزوا على جريح، ولا يغنموا إلا ما حمل إلى الميدان أو المعسكر من عتاد أو سلاح فقط، وليس ما وراء ذلك من شيء، ونهاهم أن يدخلوا الدور.

ليس هذا فحسب بل قال لمن حاربه من أهل البصرة: من وجد له شيء من متاع عند أحد من أصحابه فله أن يسترده[٢].

عدد الشهداء:

انقشعت معركة الجمل عن عدد من الشهداء اختلفت الروايات في تقديره إلاّ أن العدد محدودا قد لا يصل لألفين أو نحوه؛ فالمعركة لم تأخذ سوى ساعات يسيرة من ارتفاع الشمس إلى زوالها[٣].

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنف (١٥/ ٢٨٦-٢٨٧) بسند صححه ابن حجر في الفتح (١٣/ ٥٧) والمصنف أيضاً (١١/ ١٠٨) وتاريخ خليفة (ص١٨٦، ١٩٠) بسند حسن والبخاري: التاريخ الصغير (١/ ١١٠) بسند صحيح. مصعب الزبيري: نسب قريش (٢٨١) والحاكم: المستدرك (٣/ ٣٧٥) وتاريخ الطبري (٤/ ٥٣٣ بسند حسن ٥٣٠، ٥١٨)

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف (١٥/ ٢٨٦-٢٨٧) بسند صححه ابن حجر في الفتح (١٣/ ٥٧) وعبد الرزاق: المصنف (١٠/ ١٢٠-١٢١، ١٢٣، ١٢٤) وأبو الشيخ: طبقات المحدثين بأصبهان، تحقيق عبد الغفور البلوشي (١/ ٢٨٣-٢٨٤) وأبو نعيم: ذكر أخبار أصبهان (٦٩).

(٣) خليفة: التاريخ (١٨٦).

وقد استشهد في هذه المعركة عدد من خيرة المسلمين كان على رأسهم طلحة والزبير والذين أخبر بشهادتهم النبي ﷺ ولا يكون الرجل شهيداً إلا إذا قُتِلَ في طاعة.

تفقده القتلى وترحمه عليهم:

وقد حزن علي ﷺ على مصرع خيرة المسلمين في هذه الحرب التي دُفِعَ إليها دفعاً ولم يكن له بُدٌّ منها.

ولَمَّا جاءه قاتل الزبير ابن جرموز يستأذن عليه ظانّاً أنه قتل عدوا سيفرح بمقتله الخليفة، منعه علي ﷺ من الدخول وقال: للآذن بشر قاتل ابن صفيّة بالنار[1].

وذلك لأنه تعمد قتله بلا تأويل مستساغ بل أنّا لابن جرموز أن يكون من أهل التأويل ! والزبير لم يَعُد في ميدان القتال.

فالقتال في الفتنة يكون مُدَافَعَة وفي ميدان القتال فقط، وليس الغرض القتلُ بل الردعُ والتخويف إلى أنْ يحصل المقصود من الكفّ عن البغي.

خرج عليٌّ يتفقد القتلى مع نفر من أصحابه فأبصر محمد بن طلحة بن عبيدالله (السجاد) فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، أما والله لقد كان شابا صالحا، ثم قعد

(١) ابن سعد الطبقات (٣/ ١٠٥) وأبو داود الطيالسي: المسند (٢٤) وأحمد بن حنبل: المسند (١/ ١٠٢، ١٠٣). وله فضائل الصحابة: (٢/ ٧٣٧).

كئيبا حزينا، ودعا للقتلى بالمغفرة وترحم عليهم وأثنى على عدد منهم بالخير والصلاح[١].

وعاد إلى منزله فإذا امرأته وابنتاه يبكين على عثمان والزبير وطلحة وغيرهم.

فقال لهن: إني لأرجو أن نكون الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[٢].

ثم قال: ومن هم إن لم نكن، ومن هم إن لم نكن فما زال يردد حتى ودَدْنَ أنه سكت[٣].

بيعة أهل البصرة:

بايع أهل البصرة عليا ﷺ عقب المعركة راضين غير مُكرهين وكان للمعاملة الراشدة أكبر الأثر في إقبالهم على البيعة من تلقاء أنفسهم.

ثم قام علي ﷺ خطيبا في الناس ذكر في خطبته أن هذا الأمر –أي الخلافة– لم يَعْهدْ رسول ﷺ فيه لأحد من الناس وإنما تمت بيعة الخلفاء السابقين باختيار الأصحاب رضوان الله عليهم ثم قال: وقد وُفِيَ لبيعة السابقين فمال بال بيعتي هي التي تُنْكث[٤].

---

(١) ابن أبي شيبة المصنف (١٥/ ٣٦١) وأبو عرب المحن (١١٩).والحاكم: المستدرك (٣/ ١٠٣، ١٠٤، ٣٧٥) والإسناد حسن لغيره.وبدون إسناد أخرجها ابن سعد في الطبقات (٥/ ٥٥) ومصعب الزبير نسب قريش (١٩٣).

(٢) سورة الحجر، آية (٤٧).

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف (١٥/ ٢٦٨-٢٦٩) وابن سعد: الطبقات (٣/ ٢٢٤).

(٤) عبد الله بن أحمد كتاب السنة (٢/ ٥٦٦) بسند صحيح قاله محققه و(ص ٥٦٧، ٥٦٨).

تعليق أم المؤمنين رضي الله عنها على وقعة الجمل:

كان مقصد أم المؤمنين رضي الله عنها الإصلاح شأنها في ذلك شأن طلحة والزبير رضي الله عنهما وكانت تعرف مكانتها عند الناس ورأت أن الطلب بدم عثمان ﷺ واجب شرعي وأن وجودها سيحرك الناس في هذا الأمر. وكانت مصيبة في ظنها فكثير من الناس خرج لخروجها رضي الله عنها أما حدوث المعركة بوجودها وعلمها فلا يصح.

بل لم يكن لها يد فيها فهي خرجت للميدان عندما أُخبِرت بأن القوم أنشبوا القتال فدفعت المصحف إلى كعب بن سور ليدعو الناس إلى ما فيه وكف القتال. وتقدمت هي ليراها الناس فتنطفئ الحرب لمكانتها.

وانفلت الأمر من يدها رضي الله عنها فلم تجد إلا الدعاء على قتلة عثمان ﷺ وأَمَّنَ الناس معها.

وقد نصحت محمد بن طلحة (السجاد) بأن يكون كخيري ابني آدم فأغمد سيفه بعد أن سله فقتل ﷺ.

ومما يدل على أن الأمر انفلت منها وأنه ليس لها في الحرب يد، ولم تردها بل هوجمت عندما برزت إلى الميدان لكف الناس بعضهم عن بعض؛ ما احتجت به على عمار بن ياسر ﷺ وعلى الأشتر عندما دخلا عليها بعد المعركة فقالت للأشتر:

أنت الذي أردت قتل ابن أختي؟ والله لو قتلته ما أفلحت أبدا.

وأما أنت يا عمار !

فلقد علمت ما قال رسول الله ﷺ: إنه لا يقتل إلا ثلاثة؛ رجل قتل رجلا فيقتل به، أو رجل زنا بعد ما أحصن فرجم، أو رجل ارتد بعد إيمان(١).

وقولها هذا واحتجاجها يدل على أنها لم تتصور أن يحدث قتال بين الجانبين لعظم حرمة دم المسلم.

وترى أنَّ جيش عليٍّ هو الذي بدأ القتال.

وقد كان يوم الجمل لا يفارق مخيلتها وندمت على خروجها أشد الندم فكانت تقول: لأن أكون جلست عن ميسري كان أحب إلي من أن يكون لي عشرة من الولد من رسول الله ﷺ(٢).

كما كانت تقول: وددت أني كنت غصنا رطبا ولم أسر مسيري هذا(٣).

ولم يفارقها إحساسها بالندم رضي الله عنها حتى في مرض موتها إذ لما حضرتها الوفاة أوصت ابن أختها عبد الله بن الزبير أن لا تُدفن مع رسول ﷺ في حجرتها، وأن تدفن بالبقيع مع أزواج النبي ﷺ.

وقالت: إني أحدثت بعده حدثا(٤).

وفي الصحيح: وادفني مع صواحبي بالبقيع لا أزكى به أبداً.

---

(١) النسائي: السنن (٧/ ٨٣، ٨٤) أورد ما يتعلق بعمّار. واسحاق بن راهويه: المسند (مسند أم المؤمنين عائشة ٣/ ٩١٣) ورجاله ثقات. والطيالسي: المسند (ص٢١٦)

(٢) ابن أبي شيبة المصنف (١٥/ ٢٧٧) بسند منقطع. والحاكم: المستدرك (٣/ ١١٩) بسند حسن.

(٣) ابن أبي شيبة المصنف (١٥/ ٢٨١) بسند صحيح.

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري) (٣/ ٢٥٥، ١٣/ ٣٠٤) وابن أبي شيبة المصنف (١٥/ ٢٦٠).

ولكنها كانت مؤمنة بأن ما حدث كان قدرا مقدورا[١].

وكفى بعلمها وفقهها دليلا وحجة.

وقد صحَّ أن رجلا نال من عائشة رضي الله عنها عند عمار ﷺ فقال:

أغرب مقبوحاً أتؤذي حبيبة رسول الله ﷺ؟ [٢].

وفي حديث حسن ذُكرتْ عائشة عند عليٍّ ﷺ فقال: خليلة رسول الله ﷺ [٣].

(١) أحمد: المسند (٦/ ٢٩٣) والبزار: كشف الأستار (٤/ ٩٣/ ٢٣٤).والطبراني: المعجم الكبير (١/ ٣٤) والهيثمي: مجمع الزوائد(٧/ ٢٣٤).وابن حجر: فتح الباري (١٣/ ٥٥) وقال أخرجه أحمد والبزار.

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٦٦٤) (٣٨٨٨) أبو داود الطيالسي: المسند (٩٠) والطبراني: المعجم الكبير (٢٣/ ٤٠) والذهبي السير (٢/ ١٧٩).

(٣) الذهبي: السير (٢/ ١٧٦).

صفين

لم تنتهي الخلافات بانتهاء حرب الجمل، وبيعة أهل البصرة، فهناك الشام وأميره معاوية بن أبي سفيان والذي أظهر المخالفة على الخليفة منذ توليه الخلافة حين رفض أن يتنازل عن إمرة الشام ويرسل بالبيعة إلا بعد القصاص من سُمُوا قتلة عثمان.

وهذا الشرط قد عُرِف موقف علي ﷺ منه.

محاولات الصلح:

بعد مبايعة أهل البصرة، أرسل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ من الكوفة رسولاً إلى معاوية يدعوه إلى الدخول في الجماعة والمبايعة.

فرد معاوية عليه برده المعروف، وهو تسليم قتلة عثمان أوالقود منهم ثم يدخل في البيعة؛ وترددت الرسل والرسائل بينهما.

إذا فنقطة الخلاف ما زالت قائمة فعليٌّ مُصِرٌ على موقفه وعلى ضرورة دخول معاوية في الجماعة ولو أدى الأمر إلى القتال.

فاتجه عليٌّ بجيشه قاصدا الشام، فتقابل الجيشان الكبيران في صفين قرب الرقة وفي صفين بدأت محاولات للصلح استمرت أشهراً.

وهذه الفترة الطويلة التي مكثوها في صفين قبل الحرب يدل على الرغبة في التوصل لصلح يجنب المسلمين مرارة القتال.

لم تكن المراسلة والرسل بين أمير المؤمنين ومعاوية هي القناة الوحيدة في شأن الصلح، فقد كان قرآء الفريقين الذين قد عسكروا في ناحية من صفين، وهم عدد كبير قد قاموا بمحاولات للصلح عديدة ولم تنجح تلك المحاولات لالتزام كل فريق منهما برأيه وموقفه[١].

وقد حضر مسروق بن الأجدع أحد كبار التابعين فوعظ وخوف ولم يقاتل[٢].

وقد انتقد ابن كثير التفصيلات الطويلة التي جاءت في روايات أبي مخنف ونصر، بخصوص المراسلات بين الطرفين فقال: «..ثم ذكر أهل السير كلاما طويلا جرى بينهم وبين علي، وفي صحة ذلك عنهم وعنه نظر، وقال أيضا: وهذا عندي لا يصح، من علي ﷺ»[٣].

وزيادة على ما انتقده فهي تخالف سيرة علي ﷺ في قتال أهل البغي وأنهم إخوانه بغوا عليه لا يكفرهم ولا يفسقهم والتي استنبطها ودونها الأئمة الكبار في أمهات الكتب الحديثيّة والفقهية الواردة بالأسانيد الصحيحة.

إعلان الحرب:

بعد عدّة مناوشات خفيفة استمرت أشهراً لم يُقتِل فيها أحد تخللتها محاولات الصلح آنفة الذكر، فلما لم تنجح كل تلك المحاولات الحثيثة في حل هذه

(١) نصر: صفين (١٩٧-١٩٨) وابن كثير البداية والنهاية (٢٥٩).
(٢) الذهبي: السير (٤/ ٦٧) بدون سند.
(٣) البداية والنهاية: (٧/ ٢٥٨).

القضية وظهر أن الحرب ليس منها بد؛ أعلن عليﷺ في جيشه أن غدا الأربعاء سيكون الالتحام الكلي بجميع الجيش ثم نبذ إلى معاوية يخبره بذلك[١].

تقابلت الجيوش الإسلامية، ومن كثرتها قد سدّتْ الأفق ولايُرى طرفاها وتفيض في هذا الموقف قريحة عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عندما يرى هذه الكتائب أمثال الجبال من المسلمين يحارب بعضها بعضا ويشعر في قرارة نفسه بالأسى والندم ولكنه أُجبر على دخول القتال، بل وحمل الراية أيضاً وذلك أنَّ والده عَمْراً أرغمه على الاشتراك معهم واحتجَّ عليه بقول رسول الله ﷺ "أطع أباك ما دام حيا"[٢].

وعبد الله بن عمرو من فقهاء الصحابة وعبَّادهم ومن رواة الحديث ولو علم أن اشتراكه في هذه الحرب معصية لله لما أطاع والده لقوله ﷺ «... إنما الطاعة في المعروف[٣]»، فخرج بالراية وارتجز وحمل السيف إلاّ أنّه لم يقاتل، ويصور لنا الموقف وتقابل الجيشين وما يريده أهل العراق من أهل الشام فيقول:

ولو شهدت جمل مقامي ومشهدي بصفين يوم شاب منها الذوائب
عشية جاء أهل العراق كأنهم سحاب ربيع رفعته الجنائب
وجئناهم نمشي كأن صفوفنا من البحر موج مده متراكب
فقالوا لنا إنا نرى أن تبايعوا عليا فقلنا بل نرى أن تضاربوا

(١) نصر: صفين (٢٠٢-٢٠٣) والطبري: التاريخ (٥/ ١٣-١٤) من طريق أبي مخنف.
(٢) أحمد المسند تحقيق أحمد شاكر، (١١/ ١٣٨-١٣٩) بسند صحيح.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٢٢٧).

فطـــارت إلينـــا بالرمـــاح كماتهـــم وطرنـــا إليهـــا بـــالأكف قواضـــب[١]

والتحم الجيشان في قتال عنيف لا يقطعه إلا أداء الصلوات، يصلي كل فريق في معسكره وبينهما جثث القتلى.

واستحر القتل وكثرت الجراحات واشتدت حتى أن عددا من جيش علي منهم قيس بن عباد وابن الكواء سألوا عليا وعمارا رضي الله عنهما لما آلمتهم الجراحة: هل قتالكم هذا بعهدِ النبي ﷺ أم رأي رأيتموه؟ فإن الرأي يخطئ ويصيب.

فأجابوهما بأنه رأي رأوه وليس بعهد النبي ﷺ[٢].

استشهاد عمار بن ياسر رضي الله عنهما وأثره:

كان عمار بن ياسر الذي جاوز التسعين عاما من أشد الناس تحمسا في هذا الأمر وقد لام أبا موسى الأشعري وأبا مسعود الأنصاري البدري في الكوفة حين بعثه عليّاً يستنفر أهلها على عدم اشتراكهما في هذا الأمر[٣].

وفي صفين كان يحارب بحماس يحرض الناس ويستنهض الهمم ولكنه بعيد كل البعد عن الغلو؛

فقد سمع رجلاً بجواره يقول: كفر أهل الشام !

فنهاه عمار عن ذلك وقال:

---

(١) ابن أبي شيبة المصنف (١٥/ ٢٩٧) وسنده ضعيف. والحاكم المستدرك (٣/ ٥٢٧).

(٢) صحيح مسلم (٤/ ٢١٤٣، ٢١٤٤)وأحمد: المسند تحقيق أحمد شاكر (٢/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ١٣/ ٥٣، ٥٤).

إنما بغوا علينا فنحن نقاتلهم لبغيهم؛ فإلهنا واحد ونبينا واحد وقبلتنا واحدة[١].

لهذا كان عمار علم لأصحاب رسول الله ﷺ الذين أبلوا معه بلاء حسنا يتبعونه حيث سار كأنهم يُوَدِّعونه لإيمانهم بأنه سيُقتل على يد الفئة الباغية، وذلك لحرصهم على سلامة دينهم وأن لا يقدموا على الأمر إلا بعد معرفة الحق والصواب فيه، وليتأكدوا من هي الفرقة الباغية التي تقتله والتي أمر الله عز وجل بقتالها إن لم تفئ.

فحديث رسول الله ﷺ في عمار «تقتله الفئة الباغية»[٢] من الأحاديث المتواترة التي رواها جماعة من الصحابة وعنهم عدد من التابعين.

ولكن لا يعني هذا التواتر أن الحديث كان مُشتهِراً قبل صفين بل إنه لم يشتهر إلا عندما استشهد عمارا رضي الله عنه.

فكان خزيمة بن ثابت البدري الأنصاري رضي الله عنه قد حضر صفين وكان كافا سلاحه يرقب عماراً فلما رأى مقتل عمار بن ياسر سلّ سيفه وقاتل أهل الشام وذلك لأنه سمع حديث رسول الله ﷺ في عمار «تقتله الفئة الباغية» ولعل آخرين فعلوا مثله وفي هذا دلالة على أن رؤية الصواب في هذه الفتنة عليه غبش فلا يكاد يُرى لقوة ووجاهة حجج المطالبين بدم عثمان.

---

(١) ابن أبي شيبة المصنف (١٥/ ٢٩٠) والبيهقي السنن الكبرى (٨/ ١٧٤).

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ١/ ٥٤، ٦/ ٣٠) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٣٥-٢٢٣٦).

أستُشهِد عمار ﷺ فاشتدت الحرب وتحمس علي ﷺ وتحمس معه جيشه بعد أن اطمأنوا أنهم على الحق ورجحت كفتهم رجحانا واضحا واستماتوا في القتال وبان وظهر بذلك سر ما أخبر به الرسول ﷺ من أنه تقتله الفئة الباغية وبان بذلك أن عليا محق وأن معاوية باغ وما في ذلك من دلائل النبوة[1].

أما أثر مقتل عمار على أهل الشام؛ فيذكر أبو عبد الرحمن السلمي أنه دخل في معسكر معاوية ليرى أثر مقتل عمار عليهم فرأى معاوية وعمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو وأبو الأعور السلمي عند شرعه الماء يسقون وكانت هي شريعة الماء الوحيدة التي يَسْتقى منها الفريقان وكان حديثهم عن مقتل عمار بن ياسر إذ قال عبد الله بن عمرو لوالده:

لقد قتلنا هذا الرجل وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال!

قال: وأي رجل؟

قال: عمار بن ياسر.

قال فيه رسول الله ﷺ «تقتله الفئة الباغية»

فقال عمرو لمعاوية: لقد قتلنا الرجل وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال!

فقال معاوية: أسكت ! فوالله ما تزال تدحض في بولك أنحن قتلناه؟

إنما قتله من جاء به!!

فانتشر تأويل معاوية بين أهل الشام انتشار النار في الهشيم ولقي قبولاً إذ خرجوا من أخبيتهم وهو يقولون: إنِّما قَتَل عماراً منْ جَاء به.

(١) ابن كثير البداية والنهاية (٧/ ٢٦٧).

وفي رواية صحيحة، فقال له معاوية:

ونحنُ قتلناه !

إنما قتله عليٌّ وأصحابه جاؤوا به حتى ألقوه بين رماحنا أو قال بين سيوفنا[1].

فمن قوّة ووجاهة حجج المطالبين بدم عثمان.

أُوِّلت النصوص ولقيَ التأويل قبولا.

عادت الحرب في نفس الليلة بشدة واندفاع لم تشهدها الأيام السابقة، فلم يكن مقتل عمار ذا أثر إيجابي لوقف القتال والصلح والرجوع إلى الحق بل كان إشارة للاستماتة في القتال.

فقد قاتل علي ﷺ قتالا شديدا، وكان رابط الجأش عليه السكينة لسانه رطب بذكر الله.

يحدثنا رجل عنه بعد الحرب أنه سمعه يقول:

أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة رضي الله عنها عندما سألته خادما.

فقال لها ﷺ:

ألا أخبرك ما هو خير لك منه !

تسبحين الله عند منامك ثلاثا وثلاثين وتحمدين الله ثلاثا وثلاثين وتكبرين الله أربعا وثلاثين.

يقول علي ﷺ: فما تركتها بعد.

(١) عبد الرزاق المصنف (١١/ ٢٤٠) بسند وصحيح وأحمد المسند (٤/ ١٩٩) من طريق عبد الرزاق.

قيل: ولا ليلة صفين؟!

فقال: ولا ليلة صفين[١].

وذُكِر أن عليّاً ﷺ صلّى بجيشه المغرب صلاة الخوف[٢].

وقال الشافعي: وحُفِظ عن عليٍّ أنه صلّى صلاة الخوف ليلة الهرير[٣].

الدعوة إلى التحكيم:

بدَتْ علامات النصر تلوح لصالح عليٍّ ﷺ وانحاز أهل الشام بعد أن استحرَّ بهم القتل إلى تل مرتفع فأشار عمرو بن العاص على معاوية بن أبي سفيان أن يرسل إلى علي بن أبي طالب بمصحف يدعوه إلى كتاب الله وقال له: إنه لنْ يأبَى عليك.

يقول الرواي شقيق بن سلمة أبو وائل:

فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[٤]، فقال علي: نعم؛ أنا أولى بذلك. بيننا وبينكم كتاب الله.

فجاء الخوارج ونحن ندعوهم يومئذ القرآء وسيوفهم على عواتقهم فقالوا:

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٩/ ٥٠٦) صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/ ٤٦).

(٢) البيهقي السنن الكبرى (٣/ ٢٥٢) قال الألباني: ذكره البيهقي بصيغة التمريض فقال: ويذكر عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عليا (إرواء الغليل ٣/ ٤٢).

(٣) ابن حجر: تلخيص الحبير (٢/ ٧٨).

(٤) سورة آل عمران، آية (٢٣).

يا أمير المؤمنين ! ما ننتظر بهؤلاء القوم الذين على التل ألا نمشي- إليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فتدخل سهل بن حنيف فقال: أيها الناس! اتّهموا رأيكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته.

وقال عندما رأى الخلاف اشتد بين الجيش بين موافق ومعارض:

والله ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا منذ أسلمنا لأمر يَفظعنا إلا أسْهَلَ بنا إلى أمر نعرفه، إلاَّ هذا الأمر، ما سَدَدْنا منه خِصَمَّاً إلا انفتح لنا خِصَمٌّ آخر.

وذكر لهم ما حدث في صلح الحديبية من تمعض المسلمين من شروط الصلح وكان الخير والنصر والفتح في الصلح(١).

وبالدعوة إلى التحكيم انتهت الحرب وتوقف القتال.

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/ ٤٥٧، ٨/ ٥٨٧) ومسلم الصحيح (٣/ ٤١١-٤١٢). والحميدي: المسند (١/ ١٩٧-١٩٨) وابن أبي شيبة: المصنف (١٥/ ٢٩٩، ٣١٧-٣١٩).

المعاملة الإسلامية الإنسانية في الحرب:

لم تنشأ هذه المعركة التي أُوقِفتْ من أمير المؤمنين عندما طلب معاوية وقفها وذلك استجابة لطلب تحكيم كتاب الله وشفقة على المسلمين وحفاظاً على أرواحهم بسبب أطماع ومصالح دنيوية؛ بل هي حرب صافية خالصة في مجملها من هذه الشوائب قامت على أسس وتأويلات دينية أصاب فيها علي ﷺ وأخطأ معاوية ﷺ ومن معه برغم أنهم لم يألوا جهداً في اجتهادهم.

وبسبب أنها حربا قامت لإحقاق الحق وإقامة الشرع فلم يكن للغدر فيها نصيب ولا بيَّت أحد الفريقين الآخر أو اغتم غرته فأصاب منه.

فكانت المعاملة الكريمة والأحكام الشرعية التي طبقها أمير المؤمنين على أصحاب الجمل هي نفسها أُنْزِلت على أهل صفين.

فقد كانوا يستقون من مصدر ماء مشترك بينهما وكانوا يقتتلون فإذا انتهوا من القتال دخل كل فريق منهم في الآخر يستخرج قتلاه ويدفنهم ويتحدثون ويتحاجون ويحاول كل فرد أو جماعة إقناع الآخرين بحجتهم.

وحتى عندما حمي الوطيس بعد استشهاد عمار ﷺ كانت هناك هدنة وموادعة لساعات معدودة لاستخراج القتلى ودفنهم وكان البعض يدخل في الفريق الآخر لقصد الحديث.

كما كانوا لا يجهزون على جريح ولا يتبعون موليا ولا يسلبون قتيلا[1].

(١) ابن سعد الطبقات الكبرى (٧/ ٤١١) بسند حسن.والحاكم: المستدرك (٢/ ١٥٥).
والبيهقي: السنن الكبرى (٨/ ١٨٢) وابن حجر: تلخيص الحبير (٤/ ٤٨) وقال صح عن أبي أمامة وهو الرواي، وصححه الألباني (إرواء الغليل ٨/ ١١٤).

معركة النهروان:

كان اتفاق علي ﷺ وأهل الشام على إيقاف الحرب في صفين وتحكيم كتاب الله سبب في مروق فرقة من جيش علي ﷺ تُقدّر في أول أمرها بأربعة آلاف من القرآء والعباد، منكرة على عليٍّ قبوله التحكيم ورأوا أنه لا بد من مواصلة القتال وألحوا عليه ﷺ في ذلك.

وقد أُرغم هؤلاء على الموافقة بسبب ضغط الجماعة عليها ومحاولة كبار الصحابة إقناعهم بأن الصلح خير من سفك الدماء وضرب لهم سهل بن حنيف المثل بصلح الحديبية عندما كان المسلمون ممتعضون من شروط الصلح مع المشركين فكان الخير والفتح فيه.

فرضخ القراء للأمر على مضض ولم يقتنعوا.

ثم زادت عندهم الشُبَه حتى خرجوا على الخليفة وبرروا خروجهم عليه بثلاثة أخطاءٍ وقعَ فيها؛

حكّم الرجال في كتاب الله وقد قال الله تعالى﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1]، فما شأن الرجال والحكم؟.

قاتل ولم يسْبِ ولم يَغنمْ لئن كانوا كفارا لقد حلت لهم أموالهم، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليهم دماؤهم.

محا نفسه من أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

---

(١) سورة الأنعام: آية (٥٧) سورة يوسف: آية (٤٠، ٦٧).

انحيازهم إلى حروراء:

وقد انفصل هؤلاء عن الجيش قبل أن يصلوا إلى الكوفة بمراحل وعلى رأسهم ابن الكواء وشبث بن ربعي والذين كان يقول مفتخرا أنا أوّل من حرر الحرورية[1]، ثم ابتعدوا فِكرياً وانشقوا عملياً عن جماعة المسلمين، وذلك بعدما نظموا أنفسهم فعينوا أميراً للصلاة وآخر للقتال وأن البيعة لله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان علي ﷺ الذي يعرف سبب خروجهم عليه حريص على إرجاعهم إلى الجماعة وتوضيح الحق والحجة ودحض الشبه التي خيّمت عليهم ، وكذلك ابن عباس رضي الله عنهما لم يكن أقل حرصا منه، وهو من هو في العلم، وقوة الحجة والبيان

وحتى لا ينخدع غيرهم بآرائهم ومظهرهم فقد أمر أمير المؤمنين مؤذنه بأن يُدخِل عليه القراء ولا يدخل أحدا إلا قد حفظ القرآن فامتلأ الدار من قراء الناس فحاجهم وبين لهم ووعظهم، فرجع للجماعة عدد منهم

ثم بعث إليهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي حاجّهم وناقشهم وأقنع عدداً كبيراً منهم.

وهنا أعلن عليٌّ سياسته الراشدة العادلة تجاه هذه الجماعة الغالية المحكِّمة التي أبَت العودة للجماعة من على المنبر قائلاً:

حكم الله عز وجل ينتظر فيكم.

---

(١) خليفة التاريخ (١٩٢) بسند صحيح.

إن لكم عندنا ثلاثا:

١- لا نمنعكم صلاة في هذا المسجد.

٢- ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء ما كانت أيديكم مع أيدينا.

٣- ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا[١].

قال هذا مع علمه أن واحدا من حملة هذه الأفكار المنحرفة سيقتله ويلحقه بالشهداء.

نقض الحرورية الاتفاق:

اجتمع رؤساء الغلاة ؛ حرقوص بن زهير التميمي وشريح بن أوفى العبسي الذي قتل السجّاد يوم الجمل عامداً، وفروة بن نوفل الأشجعي وعبد الله بن شجرة السلمي، وزيد بن حصين الطائي وجمرة بن سنان الأسدي وعبد الله بن وهب الراسبي ذو الثفنات.

اجتمع هؤلاء في منزل الأخير وتذاكروا من قُتِل في صفين أمثال عمار بن ياسر وذكروا أمر الحكمين وكفروا من رضي بالحكومة وبرئوا من عليّ ﷺ !.

وأهم قرار اتخذوه في هذا الاجتماع هو مبايعة (ذو الثفنات) عبدالله بن وهب الراسبي أميراً عليهم.

وهذه البيعة تعد نكثا لبيعة أمير المؤمنين علي ﷺ الذي كفر في نظرهم !

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنف (١٥/ ٣٢٧-٣٢٨) والشافعي: الأم (٤/ ١٣٦) وتاريخ الطبري (٥/ ٧٤) بسند ضعيف للانقطاع إلا أن للسند شواهد وقد توبع قاله الألباني في (إرواء الغليل ٨/ ١١٧-١١٨).

بقبوله التحكيم وأنهم هم أهل الإيمان الخلَّص.

ثم عقدوا اجتماعاً آخر قرروا فيه الخروج (الهجرة) من الكوفة التي أطلقوا عليها (القرية الظالمُ أهلُها)

وقد خططوا للخروج إلى النهروان خفية حتى لا يُفطَن إليهم فيُمنَعوا، مما يؤكد سوء نيتهم وتبييتهم الغدر والعدوان.

وصل الخبر إلى أمير المؤمنين بأن الخوارج قد عاثوا في الأرض الفساد، إذ قتلوا عبد الله بن خباب ورَوَّعُوا الناس، وهذا يعتبر نقضا لما أخذ عليهم أمير المؤمنين بأن لهم الأمان والحرية والعطاء ما لم يسفكوا دما أو يروعوا آمنا أو يقطعوا سبيلا.

وبالرغم من فظاعة ما ارتكبوه من منكرات بشعة لم يبادر أمير المؤمنين إلى قتالهم بل أرسل إليهم أن يسلموا القتلة لإقامة الحد عليهم.

وهذه القضية تختلف عن قضية الذين قتلوا عثمان ﷺ لأن القتلة هنا معروفون بأعيانهم، فأجابوه بعناد واستكبار: كلنا قتلته !.

فسار إليهم بجيشه الذي كان قد أعده لقتال أهل الشام في شهر محرم من عام ثمان وثلاثين للهجرة وعسكر على الضفة الغربية لنهر النهروان والخوارج على الضفة الشرقية بحذاء مدينة النهروان[1].

(١) تاريخ بغداد: (١/ ٢٠٥-٢٠٦).

تحريض علي الجيش على القتال:

كان علي ﷺ يدرك أن هؤلاء القوم هم الخوارج الذين عناهم رسول الله ﷺ بالمروق من الدين، لذلك أخذ يحث أصحابه أثناء مسيرهم إليهم ويحرضهم على قتالهم فكان يقول:

فيهم رجل مُخدج اليد، أو مودون اليد، أو مثدون اليد، لولا أن تبطروا لحدثتكم بما وعد الله الذين يقاتلونهم على لسان محمد ﷺ فسأله أحد أصحابه: آنت سمعته من محمد ﷺ؟ قال: أي ورب الكعبة أي ورب الكعبة[1].

وقال ﷺ في يوم النهروان: أمرت بقتال المارقين وهؤلاء المارقون[2].

وأرسل علي ﷺ رسله يناشدهم الله ويأمرهم أن يرجعوا وأرسل إليهم البراء بن عازب ﷺ يدعوهم ثلاثة أيام فأبوا[3]، ولم تزل رسله تختلف إليهم حتى قتلوا رسوله واجتازوا النهر[4].

عندما بلغ الخوارج هذا الحد وقطعوا الأمل في كل محاولات الصلح وحقن الدماء وأصروا على القتال قام أمير المؤمنين بترتيب الجيش وتهيئته للقتال.

وقبل نشوب المعركة يروي أبو مخنف بسنده أن أبا أيوب الأنصاري ﷺ بأمر من أمير المؤمنين تقدم نحو الخوارج براية أمان وناداهم:

من جاء هذه الراية ممن لم يَقتُل ولم يَسْتَعرض -أي لم يسفك دما أو يقطع

(١) صحيح مسلم: (٢/ ٧٤٧) وأبو يعلى المسند (١/ ٣٧٠-٣٧١).

(٢) ابن أبي عاصم السنة (٢/ ٤٢٥) (٩٠٧) تحقيق الألباني وقال: حديث صحيح.

(٣) البيهقي: السنن الكبرى (١/ ١٧٩) وتاريخ بغداد (١/ ١٧٧).

(٤) ابن أبي شيبة المصنف (١٥/ ٣٢٥-٣٢٧) بسند حسن.

سبيلا - فهو آمن ومن انصرف إلى الكوفة أو المدائن فهو آمن إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم.

فانسلخ من هذه الجماعة مائتين وألف ولم يبق مع عبد الله بن وهب الراسبي منهم سوى ألفين وثمانمائة رجل[١].

نشوب القتال:

يقول زيد بن وهب الجهني الذي شهد المعركة:

لما التقينا وعلى الخوارج يومئذ عبد الله بن وهب الراسبي فقال لهم: القوا الرماح وسلوا السيوف من جفونها، فإني أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء[٢].

التحم الجيشان في قتال شديد كما يصفه شقيق بن سلمة فجعلت خيل علي ﷺ لا تقوم لهم فنادى علي في الناس ! أيها الناس إن كنتم إنما تقاتلون لله فلا يكن هذا قتالكم فحمل الناس حملة واحدة فانجلت الخيل وهم مكبون على وجوههم.

وقد قتل أشهرهم الذي كان مغمورا وهو العلامة الدالة على أنهم ضالون والدليل المحسوس على صدق علي ﷺ وأنه على الحق ألا وهو (المخدج) أو (ذو الثدية).

ففي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ الذي خرّجه البخاري يحدث عن رسول

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٨٦).

(٢) صحيح مسلم (٢/ ٧٤٨).

الله ﷺ فيقول« ... آيتهم رجل إحدى يديه أو قال ثدييه مثل البضعة تدردر يخرجون على حين فُرْقة من الناس».

قال أبو سعيد أشهد سمعت من النبي ﷺ وأشهد أن عليّاً قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ[1].

(١) صحيح البخاري (فتح الباري (١٢/ ٢٩٠).

أحكام قتال البغاة

المعاملة قبل القتال:

المعاملة أثناء القتال:

المعاملة بعد القتال:

معاملة علي ﷺ البغاة:

قبل القتال

أولا: المحاورة والنصح:

إن المحاورة والمناقشة وشرح المواقف من الأسس والمبادىء التي نلمسها ونراها واقعاً حيّا في الأحداث الكبرى التي واجهت خلافة أمير المؤمنين ومجتمع الصحابة رضوان الله عليهم، والمسلمين.

فقد كان النقاش والحوار حاضر في البيعة وحاضر قبيل الجمل وحاضر قبل صفين وحاضر بعد التحكيم وقبل النهروان

وكان حاضر بين علي ﷺ وطائفة من جيشه ممن (سُمُوا قتلة عثمان)

وهم الذين بغوا على عثمان ﷺ وها هو الآن في خلافته يُرَوِّضهم ويهذبهم

فقول الله تعالى﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾.

وقوله تعالى﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾وقوله تعالى﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

وغيرها من الآيات في هذا الباب كان المُوجِّه للخليفة وأم المؤمنين وأهل بدر والرضوان وسائر الصحابة وتابعيهم والضابط لحواراتهم ونقاشهم وجدالهم.

فعلي ﷺ يعلم علم اليقين بصفاء ونقاء قلوب مخالفيه من الصحابة وأن دافعهم لهذه المخالفة ليست نفاسة له على الخلافة وإنما غضباً ونصرة للخليفة الشهيد

وقد تبيّن فيما مضى من هذا البحث من الروايات الصحيحة والحجج المقنعة أن هذا فحسب ولا شيء غيرَهُ، أُسُ الخلاف والنزاع.

والمتتبع لمواقف وأفعال علي ﷺ من واقع الروايات الصحيحة في تعامله مع المخالفين مناقشة وحوارا سلما وحرباً يراها أنموذجا وسنّة راشديّةً تُطَبِّق أحكاما شرعية لم يُتَحْ لها أن تُطبق قبل ذلك لأنها من الأوليّات في تاريخ المسلمين.

ولعل هذا من حكمة الله عز وجل ونعمه أن حدث أول اقتتال بين المسلمين قبل نهاية خلافة النبوة في عهد علي ﷺ الخليفة الراشد، هذه المعاملة التي سنّها واعتبرت تشريعا لقول الرسول الله ﷺ «... عليكم بستني وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»[1].

فبنى عليها الفقهاء أحكامهم واستنبطوا من فعله القواعد والأدلة في كيفية السيرة في قتال أهل القبلة، ولعلّ الإمامين أبي حنيفة والشافعي من السَبَّاقين إلى

(١) سنن الترمذي (تحفة الأحوذي ٧/ ٤٣٨) (٢٨١٥) وقال الترمذي: حسن صحيح.

توضيح وبيان ذلك، فالشافعي في كتابه العظيم (الأم) قد تبعهُ عدد من الفقهاء ينحَوْن نحوه

فلولا سيرة عليٍّ هذهِ ما عُرِف كيفية السيرة في قتال أهل البغي.

فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

حواره ومناقشته لـ(من سُمُّوا قَتلة عثمان):

سبق أن اتضح موقف علي ﷺ ممن يسميهم أصحاب الجمل وصفين (قتلة عثمان) والخلاف الكبير بين الصحابة حولهم وما جرّه هذا الخلاف من فتنة كبيرة...

هؤلاء القوم بحسب مستوياتهم الفكرية التي سبق الإشارة إليها، كان لهم نصيب كبير من اهتمام الخليفة في تبصيرهم وتهذيب أفكارهم فقد كانوا طرفاً مهماً في هذه الأحداث الكبرى، فكان يتعامل معهم بحكمة وحذر فهم كالحصان الجامح الذي لا يلجمه إلا فارسه، وقد كان له معهم مواقف كثيرة ردَّهم فيها إلى الحق وحَجَّهم بالدليل والبرهان؛ فمن طَوامِهِم التي أنقذَهم ﷺ منها ردهم عندما همّوا بقتل عبدالله بن سلام ﷺ فقال علي: إن عبد الله بن سلام منَّا رجلٌ صالح.

وعَقِب الجمل ظَنوا أو ظنَّ بعضهم أن عليّا سَيقْسِم بينهم السبي!! فتكلموا به ونشروه بين الناس ولكن سرعان ما فاجأهم علي ﷺ حين أعلن في ندائه وليس لكم أم ولد والموارث على فرائض الله، وأي امرأة قُتِل زوجها فلتعدّ

أربعة أشهر وعشرا. فقالوا: يا أمير المؤمنين تحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا نساؤهم؟! فقال علي كذلك السيرة في أهل القبلة، ثم قال: فهاتوا سهامكم وأقرعوا على عائشة فهي رأس الأمر وقائدهم !! ففرقوا وقالوا: نستغفر الله[1].

وتبين لهم أنهم كادوا أن يضلوا ضلالا مبينا[2].

وبعض هؤلاء تكلَّموا في أهل الجمل إلى أن ذكروهم بالكفر، وذكروا طلحة والزبير!، فنهاهم علي ﷺ عن ذلك أشد النهي وطرد من مجلسه من تكلم في الصحابيين الجليلين، وقال: إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله عز وجل فيهم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[3] وقد صبر ﷺ ولم يظهر حزنه الشديد؛ وكتم همومه وأحزانه خشية أن ينخذلوا ويتخلخلوا ففكرهم محدود لا يُمكنَه أن يتقبَّل ويستوعبَ مواقف الآخرين واجتهاداتهم وتأويلاتهم ويرونها باطلة.

---

(١) عبد الرزاق: المصنف (١٠/ ١٢٤) وابن أبي شيبة المصنف (١٥/ ٢٨٦) بسند صححه ابن حجر في الفتح (١٣/ ٥٧) ونفسه: (١٥/ ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٥٥) وأبو الشيخ: طبقات المحدثين، تحقيق عبد الغفور البلوشي (١/ ٢٨٣-٢٨٤) والحاكم: المستدرك (٢/ ١٥٥) والبيهقي: السنن الكبرى (٨/ ١٨١، ١٨٢).

(٢) عبد الرزاق: المصنف (١٠/ ١٢٤) وابن أبي شيبة المصنف (١٥/ ٢٨٦) بسند صححه ابن حجر في الفتح (١٣/ ٥٧) ونفسه: (١٥/ ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٥٥) وأبو الشيخ: طبقات المحدثين، تحقيق عبد الغفور البلوشي (١/ ٢٨٣-٢٨٤) والحاكم: المستدرك (٢/ ١٥٥) والبيهقي: السنن الكبرى (٨/ ١٨١، ١٨٢).

(٣) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة (٢/ ٦١٨) بإسناد حسن. وابن سعد: الطبقات (٣/ ١١٣) والطبري: التفسير (١٤/ ٣٦) وابن كثير: التفسير (٤/ ١٦٤)وابن حجر: المطالب العالية (٤/ ٢٩٣) والسيوطي: الدر المنثور (٤/ ١٠١).

ومع حرصِ عليٍّ ﷺ على تعليمهم وتبصيرهم وصبره على جلافتهم وحدتهم وضيق أفقهم وكثرة شكوكهم وغلبة الشبهات عليهم، كانوا إذا بلغوا هذا الحد الغالي من القول والفكر يُنكِرُ عليهم بِشدةٍ وحزم ولا يترك لهم مجالا للتمادي في هذه الشكوك والشبهات.

ويبدو أن هناك من هو مُندسٌ بينهم ولا استبعد ذلك بل إني متيقن أن في جيش علي ﷺ زنادقة يحاولون بث هذه الأفكار وما أسوأ منها التي تفرق الأمة وتزرع بينهم الكراهية والحقد والتنافر وتؤسس للانحراف الفكري.

فقد وردت روايات أن عليّاً قد سمع من يُقدِمَهُ على أبي بكر وعمر ولا يكتفي بهذا الزعم بل يذكرونهما بغير الذي هما له أهل من الإسلام ويُشِيعون أن عليّاً يُضمِرُ لهما خلاف ما يُظْهِر!

فقال قولته المشهورة: ألا ولن يبلغني عن أحد يفضلني عليهما إلا جلدتهُ حدّ المفتري[1].

وجاء في صحيح البخاري[2] أنه ﷺ أحرق جماعة من الزنادقة ألّهته.

فالزنادقة وأعداء الإسلام المدسوسين ليس لهم عند أبي السبطين حوار بل السيف البتار والحرق بالنار.

وتعامل أمير المؤمنين مع من سُمُّوا (بقتلة عثمان) يحتاج إلى مؤلف مستقل.

---

(١) أبو إسحاق الفزاري: السير (ص٣٢٧ رقم ٦٤٧) بسند صحيح. والخطبة بكاملها رواها سليمان التيمي في: سير السلف (١/ ١٢٠) وأخطأ المحقق في الحكم عليها بالوضع. وراجع للباحث (خلافة علي ٢/ ٥٣٦ تحقيق رواية رقم(٤٧)

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٦/ ١٤٩، ١٢/ ٢٦٧).

وعلى العموم فقد أثمرت هذه الحوارات والنقاشات المتكررة، في تهذيب الأفكار وترشيدها وكبح شاردها، إلا عدد يسير إذا ماقورن بعدد أتباع علي ﷺ فالخوارج الذين هم من ضئضي هؤلاء لما خاضوا النهروان لم يصلوا إلى ثلاثة الآف ــ في حين تجاوز عددهم في إحدى المرات عشرين ألفا وفي رواية اثني عشر ألفا ــ، وجيش علي ﷺ قارب السبعين ألفا[1].

يقول ابن قدامة: وإنما كان كذلك لأن المقصود كفهم ودفع شرهم لا قتلهم فإن أمكن بمجرد القول كان أولى من القتال لما فيه من الضرر بالفريقين وهذا يدل على أن الخوارج فرقة من المسلمين كما قال بذلك كثير من العلماء[2].

وقد سئل علي ﷺ أكفار هم؟ قال من الكفر فروا، فقيل: منافقون؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا، قيل فما هم؟ قال قوم بغوا علينا فقاتلناهم.

وفي رواية قوم بغوا علينا فنصرنا عليهم. وفي رواية قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصموا[3].

فلفظة البغي واضحة في أقوال عليٍّ ﷺ

وأما من خالفه من أصحاب النبي ﷺ من أهل الجمل وصفين ومحاولاتهم الحثيثة للإصلاح، فقد مرّ فيما تقدم في مواضعه، وأنّ نظرة بعضهم لبعض تنبع

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٨٦).

(٢)المغني (٨/ ١٠٨) وابن حجر في فتح الباري (١٢/ ٣٠٠-٣٠١) والشوكاني: نيل الأوطار (٨/ ١٨٢).

(٣) عبد الرزاق: المصنف (١٠/ ١٥) مصنف ابن أبي شيبة (١٥/ ٣٣٢) بسند صحيح والبيهقي: السنن الكبرى (٨/ ١٧٤).

من مشكاة واحدة.

المعاملة أثناء القتال:

لم يحدث القتال إلا بعد الإعْذَار واستنفاد كل الجهود لمنعهِ، وبالتالي فقد اضطروا للمقاتلة اضطراراً وبناءً عليه فلم يكن للغدر ولا للبيات أو تحيّن غرّة الآخر مكان؛ وذلك لأمر عظيم جداً عند أولئك السادة الأتقياء وهو كما ورد في زجر الزبير ﷺ أحد الجنود قائلا: لا يفتك مؤمن أو أن الإيمان قَيْدَ الفتك[1].

لأن الغدر والفتك والبيات مظنة إرادة القتل والاستئصال، أما هذه الحروب التي ليس منها بد فهي مقاتلة ومدافعة

لذلك كان أيضا لا يمنع أحدٌ الآخرَ الماءَ وحَوزِهِ إليه فقد مكثوا في صفين أشهراً يَستَقُونَ من مصدر ماء مشترك بينهما.

وكانوا يتوقفون لأداء الصلوات.

وكانوا يتقاتلون فإذا انتهوا من القِتال دخل كل فريق منهم في الآخر يستخرج قتلاهُ ويَدْفنهُم.

ويتحدثون ويتحاجون ويحاول كل فرد أو جماعة إقناع الآخرين بحجتهم.

بل كان البعض يدخل في الفريق الآخر لقصد الحديث.

وكان علي ﷺ يُبَيِّن القول الصحيح في مخالفيه ولا يكتمهُ؛ فقد سأل أحد أفراد جيش عليٍّ عليّاً ﷺ حين انصرافه من الصلاة، فيقول: ما تقول في قتلانا وقتلاهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: من قتل مِنَّا ومنهم يريد وجه الله والدار

(١) أحمد: المسند (٣/ ١٩) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. والعدني: الإيمان (ص ١٥٠).

الآخرة دخل الجنة[١].

وفي مساء ليلة من ليالي صفين خرج علي ﷺ إلى ساحة القتال فنظر إلى أهل الشام فدعا ربه قائلا اللهم اغفر لي ولهم[٢].

فحقيقة حال أمير المؤمنين ﷺأنه كان حزيناً على إراقة دماء المسلمين، إلا أن هذا الإحساس والعواطف لا يمنعه من مواصلة القتال، لأن الأمر لن يتمَّ أو يصْلُح إلا إذا سلَّم أهل الشام ولم يبق طريق لإدخالهم في الجماعة بعد استنفاد كل الجهود السلمية إلا السيف.

وورد عن عليّ وعمّار زجرهما لمن سبّ أو لعن أو غلا فكفّر أهل الشام

وقد قال رجل في ذلك اليوم: اللهم العن أهل الشام ! فنهاه علي ﷺ وقال: لاتسب أهل الشام جما غفيرا فإن بها الأبدال فإن بها الأبدال، فإن بها الأبدال[٣].

ويذكرنا هذا الصفاء النفسي وقول الحق بموقف عمار بن ياسر ﷺ حين استنفر أهل الكوفة قائلا: إن عائشة قد سارت إلى البصرة، والله إنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة[٤].

---

(١) سعيد السنن (٢/ ٣٤٤-٣٤٥) بسند ضعيف.

(٢) ابن أبي شيبة المصنف (١٥/ ٢٩٧) بسند صحيح إلى شاهد عيان أبهم.وابن عساكر: تاريخ دمشق تحقيق المنجد (١/ ٣٣٢).

(٣) عبد الرزاق: المصنف (١١/ ٢٤٩) بسند صحيح، والهيثمي: مجمع الزوائد (١٠/ ٦٢) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير شريح بن عبيد وهو ثقة.

(٤)صحيح البخاري (فتح الباري ١٣/ ٥٣-٥٤).

معاملة الأسرى:

الأسير في هذه المعارك يعتبر فئة وقوة لفرقته[١]،لذلك كان علي ﷺ يأمر بحبسه فإن بايع أخلى سبيله، وإن أبى أخذ سلاحه ودابته أو يهبها لمن أسره ويحلفه أن لا يقاتل؛ وفي رواية يعطيه أربعة دراهم.

وقد بايعوا من أُسِر يوم الجمل عليًّا ﷺ طواعية من تلقاء أنفسهم.

وقد أُتِيَ بأسير يوم صفين فقال الأسير: لا تقتلني صبرا !

فقال علي ﷺ: لا أقتلك صبرا، إني أخاف الله رب العالمين فخلى سبيله، ثم قال أفيك خير تبايع؟[٢].

فمن استعراض تعامله ﷺ مع الأسرى نرى معاملته لهم على هذا النحو:

أولا: إكرام الأسير والإحسان إليه.

ثانيا: يعرض عليه البيعة والدخول في الطاعة فإن بايع خَلَّى سبيله.

ثالثا: إن أبي البيعة أخذ سلاحه ويحلفه أن لا يعود للقتال ويطلقه.

رابعا: إن أبى إلا القتال تحفظ عليه في الأسر ولا يقتله صبرا.

وقد أُتِيَ ﷺ مرة بخمسة عشر أسيرا –ويبدو أنهم جرحى– فكان من مات منهم غسله وكفنه وصلى عليه[٣].

---

(١) الماوردي: كتاب قتال أهل البغي (من الحاوي الكبير) تحقيق إبراهيم صندقجي (١٣٣، ١٣٤).

(٢) الشافعي: الأم (٤/ ٢٢٤، ٨/ ٢٥٦) وعبد الرزاق المصنف (١٠/ ١٢٤) وسنده صحيح. وسعيد السنن (٢/ ٣٣٩) من نفس الطريق. وابن أبي شيبة المصنف (١٥/ ٢٩٥).

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق، تحقيق المنجد (١/ ٣٣١) وابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب (١/ ق ٣٠٨).

معاملتهم بعد القتال:

ما إن يبدأ البغاة بترك خلافهم وتظهر عليهم بوادر الهزيمة والتسليم حتى ينادي منادي علي أمير المؤمنين؛ بإيقاف القتال وأن لا يتبعوا مدبرا، ولا يجهزوا على جريح، ولا يغنموا إلا ما حمل إلى الميدان أو المعسكر من عتاد أو سلاح فقط، وليس ما وراء ذلك من شيء، ونهاهم أن يدخلوا الدور ليس هذا فحسب؛ بل قال لمن حاربه من أهل البصرة والنهروان أيضاً: من وجد له شيء من متاع عند أحد من أصحابه فله أن يسترده[1].

وأهل صفين ما إن أرسل معاوية ﷺ بالمصحف يطلب وقف القتال وتحكيم الكِتَاب حتى قال عليّ: أنا أولى بكتاب الله وأَنْهَى القتال.

وكان إذا سئل عنهم سواء أهل الجمل أو صفين؛ فقيل أمشركون هم؟ قال: من الشرك فروا، فقيل: منافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا، فقيل فما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا، فنحن نقاتلهم على بغيهم وقد فاؤوا وقد قبلنا منهم.

وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما بلغها مقتل طلحة والزبير وزيد بن صوحان – وزيد في صف علي- قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، وترحمت عليهم جميعا[2].

(١) ابن أبي شيبة: المصنف (١٥/ ٢٨٦-٢٨٧) بسند صححه ابن حجر في الفتح (١٣/ ٥٧)
عبد الرزاق: المصنف (١٠/ ١٢٠-١٢١، ١٢٣، ١٢٤) وأبوالشيخ: طبقات المحدثين بأصبهان، تحقيق عبد الغفور البلوشي (١/ ٢٨٣-٢٨٤) وأبو نعيم: ذكر أخبار أصبهان (٦٩).

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف (١٥/ ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٧٧) والبيهقي السنن الكبرى (٨/ ١٨٢، ١٧٤) وابن عساكر: تاريخ دمشق تحقيق المنجد (١/ ٣٢٨، ٣٢٩).

والخوارج حين هُزِموا يوم النَّهروان لم يَسْمَعِ النَّاس إلا ومنادي أمير المؤمنين علي ﷺ ينادي جنده؛ بأن لا يُتْبعَ مدبر أو يُذفف على جريح أو يُمثل بقتيل.

يقول شقيق بن سلمة المعروف بأبي وائل أحد فقهاء التابعين وممن شهد مع علي حروبه: لم يسْبِ علي ﷺ يوم الجمل ولا يوم النهروان[1].

فقد حمل رثَّة أهل النهر إلى الكوفة وقال: من عرف شيئا فليأخذه.

فجعل الناس يأخذون حتى بقيت قِدْرٌ حِيناً فجاء رجل وأخذها[2].

ولم يقسم بين جنده إلا ما حمل عليه الخوارج في الحرب من السلاح والكراع فقط.

تفقد علي ﷺ القتلى: وترحمه عليهم ورأيه فيهم:

كان علي ﷺ بعد نهاية الجولات الحربية يقوم بتفقد القتلى فيقول شاهد عيان رأيت عليّا على بغلة النبي ﷺ الشهباء يطوف بين القتلى.

وأثناء تفقده القتلى ومعه الأشتر مرَّ برجل مقتول وهو أحد القضاة والعباد المشهورين بالشام فقال الأشتر –وفي رواية أخرى عدي بن حاتم –:

يا أمير المؤمنين أحابس[3] معهم عهدي والله به مؤمن!

فقال عليّ: فهو اليوم مؤمن.

---

(١) البيهقي السنن الكبرى (٨/ ١٨٢) بسند صحيح.

(٢) عبد الرزاق المصنف (١٠/ ١٢٢-١٢٣) وابن أبي شيبة المصنف (١٥/ ٣٣٢) وسعيد بن منصور السنن (٢/ ٣٣٩).

(٣) حابس بن سعد الطائي مخضرم قتل في صفين ويقال له صحبة (التقريب ٩٩٢).

ويقول رجل شهد صفين:رأيت عليّا خرج في بعض تلك الليالي فنظر إلى أهل الشام فقال: اللهم اغفر لي ولهم....»[١].

وعن يزيد بن الأصم قال لما وقع الصلح بين علي ومعاوية خرج علي فمشى في قتلاه فقال: هؤلاء في الجنة ثم خرج إلى قتلى معاوية فقال: هؤلاء في الجنة ويصير الأمر إلي وإلى معاوية[٢].

وقوله ﷺ في أهل صفين لا يكاد يختلف عن قوله في أهل الجمل.

إذاً فهذه هي الضوابط الشرعية للحرب بين المسلمين (الفتن) ليس الغرض منها القتل وسفك الدماء، وإنما الغرض منها مقاتلة البغاة ومدافعتهم حتى يتركوا ما هم عليه من البغي والخلاف.

ولا يعني هذا أن الحروب التي أعقبت فترة الخلافة الراشدة وصل فيها الالتزام إلى هذا المستوى الرفيع، فإن جيل الصحابة والتابعين يتسمان بمثالية واضحة ونيات المقاتلين منهم خالصة لله رب العالمين دون طمع.

ويوضح ذلك أحد كبار التابعين وهو الحارث بن سويد[٣] كان في نفر فقال: إياكم والفتن ! فإنها قد ظهرت.

فقال رجل: فأنت قد خرجت مع عليّ.

---

(١) الفراء: تنزيه خال المؤمنين (ق ١٨١ب) "نسخة خطية ضمن مجموع برقم ٣٧٦٣، مكتبة شهيد علي تركيا.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف (١٥/ ٣٠٣) بسند حسن. والطبري: المعجم الكبير (١٩/ ٣٠٧) من طريق يزيد بن الأصم وكذلك عند أبي يعلى الفراء تنزيه خال المؤمنين (ق ١٨١).

(٣) الحارث بن سويد التيمي، إمام ثقة، توفي (٧٠هـ) (سير أعلام النبلاء ٤/ ١٥٦).

قال: وأين لكم إمام مثل علي[١].

قال ابن العديم: «قلت: وهذا كله حكم أهل البغي ولهذا قال أبو حنيفة لولا ما سار علي رضي الله عنه فيهم ما عَلِمَ أحدٌ كيف السيرة في المسلمين»[٢].

فمن فعل علي رضي الله عنه وقوله وتعامله لم يُكفِّر ولم يفسِّق ولم يتهم أحداً من هذه الأطراف بالنفاق حسب الروايات الصحيحة، فعلى هذا فإن من أنزل الحديث الصحيح (لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق).

وحديث (حب عليٍّ والأنصار آية الإيمان وبغضهم آية النفاق).

على مخالفيه وأن ما جرى منهم دليل بغضهم إياه وعلامة نفاقهم، فقد خالف عليّاً وخطّأهُ في قولهِ وفعلهِ ومواقفهِ !

ونظراً لوقوع كثير من عامة الناس في هذه الشبهات، فأضيف على ما تقدم بيانه وتوضيحه تعليقاً للإمام القرطبي يستحق أن يُكتب بماء الذهب أورده في كتابه المفهم، باب «حب عليٍّ والأنصار آية الإيمان وبغضهم آية النفاق» قال:

وحب الأنصار من حيث كانوا أنصار الدين ومظهريه وباذلين أموالهم وأنفسهم في إعزازه وإعزاز نبيه وإعلاء كلمته دلالة قاطعة على صحة إيمان من كان كذلك وصحة محبته للنبي ﷺ وبغضهم كذلك دلالة قاطعة على النفاق وكذلك القول في حب عليّ وبغضه، فمن أحبه لسابقته في الإسلام وقدمه في الإيمان وغنائه فيه وذوده عنه وعن النبي ﷺ ولمكانته من النبي ﷺ وقرابته

(١) ابن أبي شيبة المصنف (١٥/ ٧٦) بسند صحيح.
(٢) بغية الطلب في تاريخ حلب (١/ ق٣٠٩).

ومصاهرته وعلمه وفضائله، كان ذلك منه دليلا قاطعا على صحة إيمانه ويقينه ومحبته للنبي ﷺ.

ومن أبغضه لشيء من ذلك على العكس.

ثم قال: تنبيه من أبغض بعض من ذكرنا من الصحابة من غير تلك الجهات التي ذكرناها بل لأمر طارئ وحدث واقع، من مخالفة غرض أو ضرر حصل أو نحو ذلك لم يكن كافرا ولا منافقا بسبب ذلك لأنهم رضي الله عنهم جميعهم قد وقعت بينهم مخالفات عظيمة وحروب هائلة ومع ذلك فلم يكفر بعضهم بعضا ولا حكم عليه بالنفاق لما جرى بينهم من ذلك وإنما كان حالهم في ذلك حال المجتهدين في الأحكام فإما أن يكون كلهم مصيبا فيما ظهر له أو المصيب واحد والمخطئ معذور، بل مخاطب بالعمل على ما يراه ويظنه مأجور.

فمن وقع له بغض في واحد منهم لشيء من ذلك فهو عاص يجب عليه التوبة من ذلك، ومجاهدة نفسه في زوال ما وقع له من ذلك بأن يذكر فضائلهم وسوابقهم وما لهم على كل من بعدهم من الحقوق الدينية والدنيوية إذ لم يصل أحد ممن بعدهم بشيء من الدنيا ولا الدين إلا بهم، بسببهم وصلت لنا كل النعم واندفعت عنا الجهالات والنقم ومن حصلت به مصالح الدنيا والآخرة فبغضه كفران للنعم وصفقته خاسرة[1].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ٢٦٤-٢٦٦).

ويقول القرطبي صاحب الجامع:

«لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به، إذ كان كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر لحرمة الصحبة ولنهي النبي ﷺ عن سبهم وأن الله غفر لهم وأخبر بالرضا عنهم هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي ﷺ أن طلحة شهيد يمشي على وجه الأرض فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصيانا لم يكن بالقتل فيه شهيدا وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأ في التأويل وتقصيرا في الواجب عليه.

لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل في طاعة فوجب حمل أمرهم على ما بيّناه ومما يدل على ذلك ما قد صح وانتشر من أخبار عليّ بأن قاتل الزبير في النار.

وقوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

بشر قاتل ابن صفية بالنار.

وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير غير عاصيَيْن ولا آثميْن بالقتال؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبي ﷺ في طلحة: شهيد ولم يخبر أن قاتل الزبير في النار، وكذلك من قعد غير مخطئ في التأويل بل صواب أراهم الله الاجتهاد وإن كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم وإبطال فضائلهم وجهادهم وعظيم عنائهم في الدين رضي الله عنهم»[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٢١).

استشهاد عليٍّ رضوان الله عليه:

جاء في مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال رسول الله ﷺ «اهدأ فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد»(١).

وبعض الروايات تفيد أن عليّا ﷺ يعرف الحروري الشقي الذي سيقتله؛ فيروي عبيدة السلماني بسند صحيح إليه يقول: كان عليّ إذا رأى ابن ملجم قال:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد مرادي(٢)

فلقد تركت معركة النهروان في نفوس الخوارج جرحا عميقا لم تزده الأيام والليالي إلا إيلاما وحسرة فاتفق نفر منهم على أن يفتكوا بعلي ﷺ ويثأروا لمن قُتِل من إخوانهم في النهروان.

وقد استعد عبد الرحمن بن ملجم المرادي الحميري، أن يغامر هذه المغامرة ويخسر دنياه وآخرته ويكون بذلك أشقى أو من أشقى الناس وهو مع ذلك يتأول أنه على الحق ويريد القربة من الله عز وجل ولا شك أن هذا من التأويل الفاسد إذ كيف يتقرب إلى الله عز وجل بقتل رجل مشهود له بالجنة.

فلما خرج لصلاة الفجر ابتدره الشقي فضربه على قرنه بالسيف كالذي أخبر به رسول الله ﷺ وقال: الحكم لله يا عليّ!!

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٠).

(٢) عبد الرزاق: المصنف (١٠/ ١٥٤) وابن سعد الطبقات (٣/ ٣٣، ٣٤) بإسناد صحيح.

فقال: عليٌّ: لا يفوتنكم الرجل. فشد عليه الناس من كل جانب وقبضوا عليه، وكانت هذه الحادثة الشقيّة صبيحة إحدى وعشرين من رمضان[١].

وقد أثنى شاعر الخوارج عمران بن حطان على جريمة ابن ملجم المرادي !

وعارضه بكر بن حماد التاهرتي فأجاد وأحسن فمما قال:

قل لابن ملجم والأقدار غالبة ... هدمت ويلك للإسلام أركانا

قتلت أفضل من يمشي على قدم ... وأول الناس إيمانا إساما وإيمانا

بل ضربة من غوي أوردته لظى ... مخلدا قد أتى الرحمن غضبانا

كأنه لم يرد قصدا بضربته ... إلا ليصلى عذاب الخلد نيرانا[٢]

ولم يوصِ ﷺ بالأمر لأحد وقد قال له أصحابه: استخلف فقال: لا، أكلكم إلى ما وكلكم إليه رسول الله ﷺ[٣].

وكانت مدة خلافته على قول خليفة بن خياط: أربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام، ويقال ثلاثة أيام، ويقال: أربعة عشر يوما[٤].

---

(١) البخاري: التاريخ الكبير (١/ ٩٩-١٠٠) بسند صحيح إلى شاهد عيان.

(٢) عبد الغني بن سعيد الأزدي: كتاب المتوارين (ص٦٢) وابن عبد البر: الاستيعاب (٣/ ٢٨٨-٢٨٩) والسبكي: طبقات الشافعية: (١/ ٢٨٨-٢٨٩) وابن كثير البداية والنهاية (٩/ ٥٣) وابن حجر الإصابة (٢/ ١٧٧).

(٣) أحمد المسند تحقيق أحمد شاكر (٢/ ٣٤٠) وأبو يعلى المسند (١/ ٢٨٤، ٤٤٣).

(٤) التاريخ (ص ١٩٩).

موضع قبره:

تولى تجهيز علي ﷺابناه سبطا النبي ﷺ الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضوان الله عليهم وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص[١].

أما موضع قبره فقد اختلف فيه، وذكر ابن الجوزي عددا من الروايات في ذلك ثم قال: والله أعلم أي الأقوال أصح[٢].

والذي عليه أهل العلم أنه دفن بالكوفة عند مسجد الجامع في قصر الإمارة ليلاً وغُبِيَ قبره مخافة أن ينبشه الخوارج.

وكان له يوم استشهد على أشهر الأقوال ثلاث وستون سنة؛ وهو قول أبي إسحاق السبيعي[٣]، وجعفر بن محمد الصادق[٤]،ورجحه الحافظان الذهبي[٥]، وابن حجر[٦]، وقال ابن جرير الطبري: وذلك أصح ما قيل فيه[٧].

والحمد لله الذي بنعمه تتم الصالحات

وصلى الله وسلم على نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(١) ابن سعد الطبقات (٣/ ٣٧) وابن الجوزي: المنتظم (٥/ ١٧٥).

(٢) نفسه (ص ١٧٨).

(٣) ابن أبي عاصم: الآحاد والمثاني (١/ ١٤١).

(٤) الطبري: التاريخ (٥/ ١٥١) وابن الجوزي: المنتظم (٥/ ١٧٦).

(٥)الذهبي: تاريخ الإسلام، تحقيق عمر عبد السلام التدمري (السيرة النبوية) (١٢٧-١٢٨).

(٦) ابن حجر: تقريب التهذيب (٤٧٥٣).

(٧) تاريخ الطبري (٥/ ١٥١).

فهرس أهم المصادر

* البيهقي: الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٤٥٨هـ)

السنن الكبرى، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

*النسائي: أحمد بن شعيب (٣٠٣هـ).

خصائص علي بن أبي طالب، تحقيق أحمد ميرين البلوشي، الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م) مكتبة المعلا، الكويت.

سنن النسائي، الطبعة الأولى (١٣٨٣هـ-١٩٦٤م) مطبعة الحلبي، مصر-

فضائل الصحابة، تحقيق الدكتور فارق حمادة، دار الثقافة، المغرب.

ابن تيمية أحمد بن عبد الرحيم الحراني (٧٢٨هـ).

منهاج السنة النبوية، تحقيق محمد رشاد سالم، طبعة (١٤٠٦هـ) جامعة الإمام.

* ابن حجر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)

الإصابة في تمييز الصحابة. (١٣٥٨هـ-١٤٠٥هـ) المكتبة التجارية، مصر.

فتح الباري، تصحيح وتحقيق-الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (مكتبة الرياض الحديثة، الرياض).

* أحمد بن محمد بن حنبل (٢٣١هـ)

مسائل الإمام أحمد بن حنبل برواية ابن هاني، تحقيق زهير الشاويش، الطبعة الأولى (١٤٠٠هـ) المكتب الإسلامي، بيروت.

المسند، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، طبعة (١٣٩١هـ-١٩٧١م).

*ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير القرشي (٧٧٤هـ)

البداية والنهاية، طبعة دار الفكر، بيروت (١٣٩٨هـ-١٩٧٨م)

*خليفة بن خياط (٢٤٠هـ)

تاريخ خليفة، تحقيق أكرم ضياء العمري، الطبعة الثانية (١٣٩٧هـ) مؤسسة الرسالة.

* سليمان بن الأشعث السجستاني، أبو داود (٢٧٥هـ)

السنن، تحقيق عزت الدعاس، الطبعة الأولى (١٣٩١هـ١٩٧١م) حمص.

* عبد الحميد بن علي ناصر فقيهي

خلافة علي بن أبي طالب ﷺ دراسة نقدية للروايات من خلال كتب السنة والتاريخ، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، الرياض.

* عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (٥٩٧هـ)

المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا،وأخوه مصطفى، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ-٢٩٩٢م) دار الكتب العلمية بيروت.

* عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١هـ)

المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ) المكتب الإسلامي، بيروت.

*أبو الشيخ عبد الله بن محمد بن جعفر الأنصاري (٣٦٩هـ)

طبقات المحدثين بأصبهان، والواردين عليها، تحقيق عبد الغفور عبد الحق

البلوشي، الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م) مؤسسة الرسالة، بيروت.

*عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (٢٣٥هـ)

المصنف في الأحاديث والآثار، دائرة المعارف العثمانية.

*ابن هشام، عبد الملك الحميري (٢١٨هـ)

السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، دار القلم، بيروت، (أربع مجلدات).

* الذهبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ)

تاريخ الإسلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، الطبعة (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).

*محمد بن إدريس الشافعي المطلبي (٢٠٦هـ)

الأم، طبعة مصورة عن طبعة بولاق (١٣٢١هـ) الدار المصرية، القاهرة.

*محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)

الجامع الصحيح (فتح الباري) تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز مكتبة الرياض، الرياض.

*محمد بن جعفر بن جرير الطبري (٣٠١هـ)

تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر.

*محمد بن سعد (٢٣٠هـ)

الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.

*الحاكم، محمد بن عبد الله (٤٠٥هـ)

المستدرك على الصحيحين، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب.

محمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩هـ)

السنن (تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري) تصحيح عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثانية (١٣٦٨هـ-١٩٦٣م) المكتبة السلفية المدينة المنورة.

*محمد ناصر الدين الألباني

إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ-١٩٧٩م) المكتب الإسلامي، دمشق.

*مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١هـ)

الصحيح، ضبط محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى (١٣٧٥هـ-١٩٥٥م) مطبعة البابي الحلبي، مصر.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ترجمة أبي السبطين علي أبي طالب ﷺ	٦
البيعة	٩
مواقف الولايات من بيعته ﷺ	١٤
موقف عليٍّ ﷺ مِنْ مَنْ سُمُّوا «قتلة عثمان ﷺ»	١٦
معركة الجمل	٢١
محاولات الصلح	٢٧
الجولة الأولى من معركة الجمل	٣١
الجولة الثانية	٣٣
عدد الشهداء	٣٥
تفقده القتلى وترحمه عليهم	٣٦
بيعة أهل البصرة	٣٧
تعليق أم المؤمنين رضي الله عنها على وقعة الجمل	٣٨
صفين	٤١
محاولات الصلح	٤١
إعلان الحرب	٤٢
استشهاد عمار بن ياسر رضي الله عنهما وأثره	٤٤

الدعوة إلى التحكيم	٤٨
المعاملة الإسلامية الإنسانية أثناء القتال	٥٠
معركة النهروان	٥١
انحياز القراء إلى حروراء	٥٢
نقض الحرورية الاتفاق	٥٣
تحريض أمير المؤمنين جيشه على القتال	٥٥
نشوب القتال	٥٦
أحكام قتال البغاة	٥٨
معاملة علي ﷺ البغاة قبل القتال	٥٨
حواره ومناقشته لـ(من سُمُّوا قَتلة عثمان)	٦٠
المعاملة أثناء القتال	٦٤
معاملة الأسرى	٦٦
معاملتهم بعد القتال	٦٧
تفقد علي ﷺ القتلى وترحمه عليهم ورأيه فيهم	٦٨
استشهاد عليٍّ رضوان الله عليه	٧٣